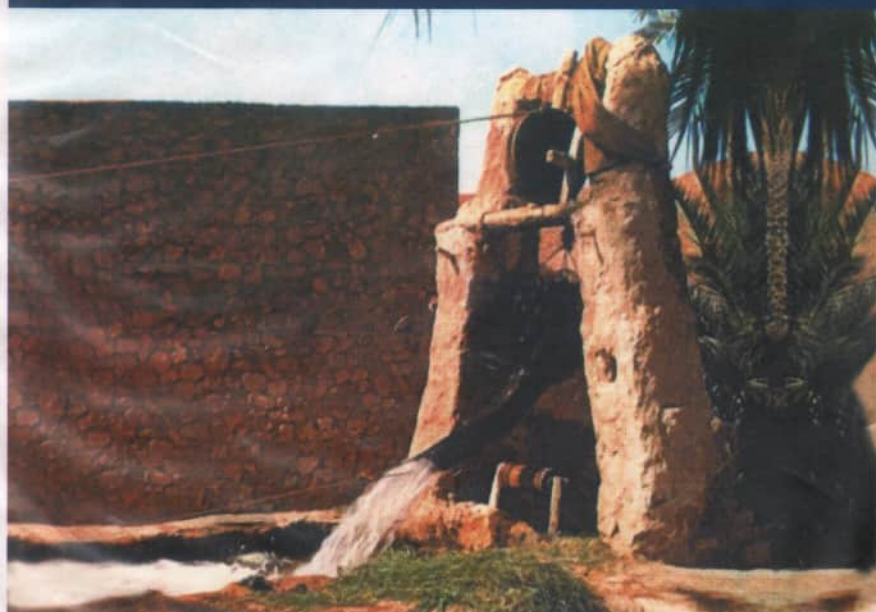


مفدي زكرياء

أضواء على وادي ميزاب ماضيه وحاضره

دراسة وتحقيق إبراهيم بحاز



دراسة

1667



ditions
lpha

الكتاب

أضواء على وادي ميزاب، ماضيه وحاضره

تأليف

الأستاذ مفدي زكرياء

تقديم

إبراهيم بكير بحاز

الطبعة الأولى: الجزائر 2010

الناشر

منشورات ألفا، قصر المعارض، الصنوبر البحري، الجزائر

الهاتف: 213 21 21 09 72+

الفاكس: 213 21 21 98 61+

editions@alpha-dz.com

www.editions-alpha.com

الإيداع القانوني : 4647-2009

ردمك : 6-52-886-9947

جميع الحقوق محفوظة للناس

للمؤلف

دواوين الشعر

- اللهب المقدس.
- من وحي الأطلس.
- تحت ظلال الزيتون.
- إلياذة الجزائر.
- أمجادنا تتكلم.

نشر ودراسات

- تاريخ الصحافة العربية في الجزائر.
- تاريخ المقاومة الجزائرية (1830 - 1945).
- أضواء على وادي ميزاب.
- تقويم المغرب العربي الكبير Annuaire du Grand Maghreb
- مسرحية الثورة الكبرى.

أولا: موقع وجغرافية وادي مزابل¹

²فيما بين وادي مزاب بالجنوب الغربي ووادي زقير³ بالشمال الشرقي، تقع منطقة تقدّر مساحتها بحوالي أربعمئة ألف هكتار⁴، تتألف من سلسلة من هضبات قليلة الارتفاع، تجعل منها شبه منطقة مستقلة عسيرة الاتصال بما يجاورها من مناطق الصحراء الجزائرية الأخرى، كما تجعل صفحتها المتكوّنة من أحجار الجصّ والمنبسطة الأفق؛ قليلة النبات وحشيشه. وكان من الممكن أن لا تعرف الزخرف أو الحياة المؤنسة، لولا أن قدّر لها أن تزدهر، رغم كل العوائق الطبيعية القاسية، على يد الإنسان الذي لا يستعصي عليه أمر حين يريد.

وهذه المنطقة هي التي اصطلح -منذ القدم- على تسميتها «مزابل». وتقع من عاصمة الجزائر على بعد 630 كلم⁵ إلى الجنوب الغربي، في أعماق القسم الرملي «العرق» من الصحراء الجزائرية.

1. لم يضع الكاتب عنوانا لحصته الثانية، وهو ما سيستدركه في الحصة القادمة. ولذلك رأيت أن يكون عنوان هذه الفقرات: «موقع وجغرافية وادي مزابل».

2. قبل هذه البداية للفقرة الجديدة في النسخة «ط» نقرأ الرقم 1 مكتوبا بالأرقام الهندية.

3. وادي زقير هو الوادي الذي يسقي القرارة ويتخلل غاباتها وهو أهم وديان القرارة.

4. مساحة بلاد الشبكة حوالي 38 ألف كيلو متر مربع، يحدها شمالا وادي بوزبير، وغربا وادي زرقون، وتمتدّ شرقا فتشمل زلفانة والقرارة، وتختلط جنوبا مع بلاد الشعانية. انظر الحاج سعيد يوسف: تاريخ بني مزابل، 1.

5. يذكر المؤلف 630 كلم مسافة ما بين الجزائر ومزاب. وربما هذا في بداية الستينيات من القرن 20. والحقيقة أنّ هذه المسافة قد تقلصت بعد إصلاح الطرقات واختصار الكثير منها، فاصبحت تقدّر بحوالي 600 كلم ما بين الجزائر العاصمة ومدينة غرداية في عمق وادي مزابل. أمّا إذا أردنا المسافة بين الجزائر العاصمة وأوّل حدود منطقة الوادي شمالا فتتقلص المسافة إلى 550 كلم تقريبا، أي إلى مدينة بريان.

والسياسية، بل والدامية¹ أيضا. ونحن نعلم إذ نعرض هذه الحقائق أنّ أناسا² سيحاولون المراء فيها عنادا واستكبارا، وأن آخرين سيحاولون الغضّ من قيمتها حميّة وتعصّبا. ونحن إذ نعرضها لا نعرضها³ ابتغاء وجه هؤلاء أو أولئك، ولكن إفادة للذين يريدون أن ينفذوا إلى الحق، وأن يرفعوا عن أبصارهم وبصائرهم أسباب الريب، وأن يصافحوا كل يد تمتدّ إليهم للتعاون على تحقيق⁴ أهداف الوطن المثلى من تجديد⁵ عرى الوحدة وتعزّيد قوى الجهاد والتحرير⁶/6.

1. هكذا وردت في النسختين «ذ» و «ط»، ولعل الصواب «الدولية»؛ لأنّ المؤلف يتحدث هنا عن الجوانب الثقافية والاجتماعية والسياسية فيضيف إليها الجانب الدولي، وهو ما ينسجم مع سياق الحديث، أما الجانب الدموي فموجود في كل تلك الجوانب المذكورة عندما تأتي في صورة مقاومة وقتال.

2. في «ذ» بعد كلمة «أناسا» إضافة هي: «من عملاء الاستعمار وسماسرة الفتنة والفساد».

3. «لا نعرضها» ناقصة في «ذ».

4. في «ذ»: «أسباب الريب، وأن يباركوا كلّ مجهود يبذله ابن الجزائر البر في سبيل تحقيق».

5. في «ذ»: «من توثيق».

6. يستمرّ المؤلف في التأكيد على دوافع كتابة هذه الصفحات؛ إحقاقا للحق وخدمة لوحدة هذه الأمة الجزائرية. وبها يُنهي الحلقة الأولى في النسخة «ط» مع إضافة عبارة غير مفهومة في سياقها وكأنها توقيع؛ هكذا: «هيئة الشباب الجزائري بوادي مزابل».

أما النسخة «ذ» فنقرأ الفقرة التالية: «وبعد؛ ولقد بسطنا في هذه المقدمة أمام المستمع الكريم منهج دراستنا المقبلة عن وادي مزابل وما نرمي له من قصد نبيل في إبراز حقائق كانت إلى عهد قريب مغمورة تحت ركام من الأقاويل والأوهام. وكأنني بالمستمع الكريم يلقي علي هذا السؤال: ما هو وادي مزابل؟ ذلك ما سنتناول الحديث عنه في دراستنا المقبلة والسلام عليكم ورحمة».

وهكذا تنتهي الحصة الإذاعية الأولى بتقديم السلام للمستمع، وهي مقدمة ملّمة بجوانب موضوع الكتاب وأهدافه ومنهجه.

الجزائرية ثم الإنسانية. فما كان للمرء يفرغ لدراسة تاريخ الحضارة في الجزائر دراسة تتسم بالاستقصاء والشمول - أن يستطيع¹ عدم العناية بآثار الإرادة البشرية القاهرة « التي تجلت في مزاب كأروع ما تتجلى الإرادة البشرية القاهرة »² حين تقصد إلى أن تصنع من قسوة الطبيعة وجفوتها لونا ممتازا من ألوان الحضارة الزاهرة الباهرة التي جمعت بين جلاله الطبيعة الساذجة، وجمال اليد الإنسانية الجبارة الصنع.

³ وكذلك نشأت المدن المزابية السبع⁴ ما بين سنة 1012 و/ 1632 1042-403 هـ للميلاد على أنقاض قرى ودساكر⁶ سبقتها إلى الوجود بأزمان لا نعرف على وجه الدقة مداها. ولكنّها - على ما يبدو - ليست نازعة في العراقة⁷. كما نشأت حول هذه المدن حدائق ومزارع، ما فتئت إلى الآن ينمو أغلبها وتعود على هذه

1. هذه الفقرة وما بعدها جاءت مرتبكة في « ط » وغير واضحة في « ذ »؛ فلم نستطع فكّ ارتباكها.

2. الفقرة بين شولتين نَجدها في نسخة « ط » في الهامش.

3. في النسخة « ذ » الكلام متصل لا توجد فقرة جديدة.

4. المدن السبع في وادي مزاب هي: العطف (تاجنيت)، بنورة (آتينور)، غرداية (تاغردايت)، بني يزجن (آت يزجن)، مليكة (آت مليشت) القرارة (لقرارة)، بريان.

5. لعلّ الصواب 1101 هـ/ 1689 م، وهو تاريخ بناء مقبنة مسجد بريان، وهي آخر مدن وادي مزاب إنشاء. انظر الحاج سعيد: تاريخ، 78.

6. العبارة غير واضحة في « ذ »، وجاءت في « ط » « دساكر ». يقول ابن منظور في كلمة دسكر: « الدسكرة بناء كالقصر حوله بيوت للأعاجم ... والجمع الدساكر ... وليست بعربية محضة » لسان العرب المحيط، 979 - 978/1.

7. من بين القرى الأقدم على القرى الحالية « أَغْرَمُ نَثْلُزْنِيَّتْ » أي « قرية الصوف ». يقول متياز بأنها تأسست عام 95 هـ على بعد 6 كلم من العطف. وكذلك قرية « أولوال » وقرية « أوخيرة ». انظر متياز: تاريخ مزاب (مخ)، 63.

وواضح أنّ شيئا من طبيعتها ما كان ليشجّع على تعميرها؛ كلا، ولا على التوقّف عندها إلا للدراسة الجيولوجية. فهي إلى جانب قسوة أرضها التي أشرنا إليها آنفا؛ قاسية الطقس جافة، ترتفع فيها درجة الحرارة صيفا حتّى قد تتجاوز الخمسين درجة، وتنزل شتاء إلى أكثر من درجة تحت الصفر، وتتراوح فيها كمّية الأمطار التي تنزل فيها خلال السنة ما بين 31 و101 ملم. وليست بها أوعية طبيعية لحفظ ما ينزل فيها من المياه، فصفحتها الرملية لا تلبث أن تمتصّ ما يتجمّع في أوديتها من هضباتها/7 ذات الارتفاع القليل¹.

ولكنّ إرادة الإنسان التي أنشأتها ظروف مختلفة في عواملها وأوقاتها - بيد أنّها كانت دائما قاسية قسوة تبلغ أحيانا مستوى الشدّة والمرارة البائسة - جعلت من هذه المنطقة القاحلة الصمّاء الموحشة؛ مثابة لطائفة من سكّان الجزائر، والمهاجرين إليها من أصقاع أخرى². أخذت مع مرور الزمن تتطوّر وتتحضّر وتزدهر، حتى استحالت واحات يكاد واقعها يُنكر نسبها الأوّل، لولا ما لا يزال يُحيط بها من كلّ جانب من رمال الصحراء الجافة وهضابها الصمّاء القائمة هناك أبدا كائنا لتخلد لها معالم نسبها الأصيل؛ بل وحتّى فرضت نفسها فرضاً قوياً جلياً³ على تاريخ الحضارة

1. هذه المعلومات الجغرافية تبدو من ملاحظات المؤلّف نفسه، ومما قرأه في جرائد زمانه.

2. من المهاجرين إلى منطقة وادي مزاب؛ العديد من النفوسيين البربر سكان ليبيا، وكذلك الجريون سكان جزيرة جربة بتونس، ثم العديد من الريغيين (منطقة تقرت حاليا)، والعديد من أعراب بني هلال الذين قدموا من الجزيرة العربية نحو الشام ثم مصر ومنها إلى بلاد المغرب الإسلامي في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر للميلاد.

3. لم يتضح رسم الكلمة في نسخة « ذ »، مما اضطر ناسخ نسخة « ط » إلى كتابة عبارة « جابها » فأربكت المعنى. ولعلّ الصواب ما أثبتناه في المتن، وهو « جلياً ».

أما السكّان الحاليون فهم من سلالة الذين عمّروا المدن السبعة الموجودة الآن، والتي يتألف منها ما يسمّى «مزاب»، والذين نزحوا إليها عقب انهيار دولة بني رستم¹ الإباضية نتيجة للغزو الفاطمي الكاسح والخلافات الداخلية التي نخرت كيانتها²، وبعد أن حاولوا الاستقرار بمنطقة «وارجلان»³ (ورقلة) أو بالأحرى في مدينة «إسدراتن» (سدراتة)⁴ التي بلغت من الحضارة مبلغا عظيما حتى عرفت منازلها/9/ الرخام وتعدّد الطبقات، واتخذت شكل قصور، ثم انقلبت إلى خراب وأنقاض بفعل الحروب الناشئة عن التعصب الإقليمي البدائي ضدّ النازحين الذي مكنتهم بقايا ما حملوا معهم من ثروة وما درجوا عليه من الحياة الحضريّة من الظهور السريع والتفوق على السكان الأصليين⁵.

1. دولة بني رستم أو الدولة الرستمية، أقامها إباضية المغرب الأوسط بزعامة عبد الرحمان بن رستم عام 160هـ/777م. انظر: بحاز: الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط 2، المطبعة العربية، غرداية، 1993م. وانظر خاصة ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق إبراهيم بحاز ومحمد ناصر، المطبوعات الجميلة، الجزائر، 1986.

2. المزابيون لم ينزحوا إلى مزاب بعد انهيار دولة الرستميين عام 296هـ/909م إثر الغزو الفاطمي، بل هم موجودون بمزاب قبل قيام دولة الرستميين، على أكبر تقدير، وكانوا يحاربون الرستميين إذ كانوا على المذهب المعتزلي. يقول اطفيش امحمد: «وليس أهل هؤلاء القرى إباضية من أول، بل كانوا معتزلة، يسافرون إلى تاهرت لقتال الإباضية». انظر: الرسالة الشافية، ط حجرية، 38. وانظر: بحاز: المزابيون المعتزلة، مقال مجلة الحياة، 124 وما بعدها.

3. وارجلان هي ورقلة، المدينة الصحراوية جنوب شرق الجزائر العاصمة. وهي اليوم من الولايات الكبيرة، من مناطقها الأساسية في الاقتصاد الجزائري؛ منطقة حاسي مسعود البترولية. عن وارجلان انظر: عمر بوعصبانة: معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان.

4. عن سدراتته انظر: Van Berchem Margueritte : Deux compagnes de fouilles à Sedrata. عمر لقمان بوعصبانة: معالم الحضارة، 49-47، 26. وانظر كذلك: رشيد بورويبة وآخرون: الجزائر في التاريخ، 192/3. بورويبة: مدن مندثرة.

5. عن قصة نزوح بقايا الرستميين إلى وارجلان وسدراتته، ثم إجلاؤهم عنهما إلى مزاب انظر: علي يحي معمر: الإباضية في الجزائر، 427-422/2. فهو ينفيها تماما.

المدن لا بالبهجة والرواء فحسب، بل بجانب /8/ من الغذاء الممكن أن يكفل الضرورات الحيويّة للحياة الساذجة، كما يمدّ ببعض الكماليات من أتيح لهم من أسباب الترف ما ينفقون على أجنّتهم بسخاء يجعلها تضارع من نواحي كثيرة أجمل ما عرفته الجزائر من أنواع الجنات.

ثانيا: أصل المزابيين¹

² ولسنا ندري على وجه الدقة شيئا عن أصل الذين عمّروا، أو بالأحرى حاولوا أن يعمرّوا هذه المنطقة قبل أوائل القرن الحادي عشر للميلاد، يوم لم تكن فيها إلا قرى وداكر اندثرت اليوم جميعا، إلا بقايا ضئيلة من رسوم وأطلال.

وقصارى علمنا؛ هو أنّ الحياة كانت قد اطمأنت هناك لأناس اطمئنانا جعلهم يفرغون للبحث العقلي، حتّى نزعوا في الكلام والجدل منزع الاعتزال، فكان من سكانها دعاة جادلوا على مذهب المعتزلة³، فنعثر في كتب علم الكلام للإباضية على آثار لمناقشاتهم وآرائهم، من أبرز هؤلاء عيسى بن عبد الجبار⁴ الذي كان من سكان منطقة العطف⁵ الحالية.

1. العنوان من وضعنا.

2. قبل هذه البداية للفقرة الجديدة في النسخة «ط» نقرأ الرقم 2 مكتوبا بالأرقام الهندية.

3. عن المزابيين المعتزلة انظر مقال: إبراهيم بحاز: المزابيون المعتزلة، قراءة جديدة لنصوص قديمة، مجلة الحياة، عدد 1، 1998.

4. لعلّ الصحيح هو سليمان بن عبد الجبار، انظر: الحاج سعيد: تاريخ، 9. كعباش: العطف، 13. بحاز: المزابيون المعتزلة.

5. العطف هي آخر مدينة إلى الجنوب على مجرى وادي مزاب، ويُطلق عليها باللسان المحلي للسكّان المزابيين: تاجنينث، وهي أوّل المدن المزابية الباقية إلى اليوم نشأة، إذ تأسست عام 402هـ/1012م، أنشأها خليفة بن أبغور.

أن كلمة «مزاب» التي أطلقت علماً على المنطقة ما هي إلا تحريف لكلمة «مصاب» بالصاد المهملة أو «مضاب» بالضاد المنقوطة، وهي اسم لرئيس قبيلة كانت لها السيطرة على تلك المنطقة قبل أن يغلب عليها النازحون¹. فقد لا يخلو من الغرابة -إذا صحّ هذا القول- أن يقبل الغالبون، وهم إنما تحمّلوا ما تحمّلوا من وهن في سبيل مذهب ومثّل، الإبقاء على اسم كبير من ناصبهم العداء كعلم على منطقة غلبوا عليها، إلا أن تكون الغلبة لم تتم نتيجة لقهر مبيد، بل نتيجة صلح تحوّل شيئاً فشيئاً إلى الاندماج².

ومهما يكن من شيء فإن هؤلاء النازحين الغالبين³ أنفسهم لم يكونوا من عنصر واحد، ولم تكن لهم جامعة تجمعهم إلا جامعة المذهب الإباضي التي كانت بعد زوال الدولة الرستمية سبباً في ما عانوه من مطاردة واضطهاد، ومن المتعذر إن لم يكن من المستحيل؛ معرفة العناصر الأصلية التي انحدروا منها. وكل ما يمكن التّحقّق منه هو أنّهم مزاج أمشاج من أجناس شتّى، كان يظلمهم العلم

وقد يكون للسكان الأوّلين بقايا، ولكن هذه البقايا -إن كانت لهم- لم تستطع أن تحتفظ لنفسها بكيان، كلاً ولا بسميّات تفرزها عن النازحين الجدد. فقد استطاع هؤلاء النازحون أن يغمروا بأفكارهم وصفاتهم وتقاليدهم كلّ ما عسى أن يكون قد بقي من أثر للسكان الأوّلين، ونحن نرى قراهم ومساكنهم لم يبق منها كما أسلفنا -إلا رسوم وأطلال¹، وأن المدن الحالية إنما تعاقب إنشائها على أيدي أفواج هؤلاء النازحين². ومع ذلك فمن الصعب أن ندّعي بأن السكان الأوّلين قد اندثروا تماماً وإن كنّا نرجح -استناداً إلى خراب دساكرهم وقراهم وزوال مذهبهم وآرائهم- أن حرب إبادة وتشتيت قد حدثت بينهم وبين هؤلاء النازحين الذين خاضوها بروح استماتة وبما كان باعثها السّام اليأس من الهجرة المستمرة، وتعلن الأمل بما في تلك المنطقة من حصانة طبيعيّة، وبقايا السكان الأصليين التي يمكن أن تكون قد نجت من هذا الصراع المرير، وفي الوقت نفسه أبت أن تبرح موطنها، قد رضيت لنفسها أن تنصهر في بوتقة النازحين الغالبين³. ولعل ما يرجّح هذا ما يقول به بعض المؤرخين/10/ من

1. يقصد قرى: أغرم نّتلزضيت، أوّلوال، أوخيرة، أغرم أنوداي، قصر الاحنش، تمّزّارت، ترشين، أقنونائي، ثلاث موسى، بوهراوة، بوزيرة. انظر: متياز: تاريخ مزاب (مخ)، 8. وانظر الحاج سعيد: تاريخ بني مزاب، 11-12.

2. ليس الأمر على هذا أبداً، فبعض المدن الحالية إنما أسست قبل مجيء الإباضية كالعطف مثلاً عام 402هـ/1013م، وبعدها بنورة عام 457هـ/1065م.

3. لم أفهم لماذا ذهب المؤلّف إلى هذا الرأي القائل بالإبادة للسكان الأصليين أي المزابيين الأوائل، والروايات التاريخية لا تذكر شيئاً من هذا. وكل ما في الأمر أن أبا عبد الله محمد بن بكر النفوسي هو الذي جاءهم بطلبته، واستطاع أن يقنع بعض علمائهم بالمذهب الإباضي الذي لا يختلف كثيراً في عقائده عن المذهب المعتزلي، ثم بعد ذلك وعلى امتداد عقود بل قرون من الزمن؛ انضوى الجميع تحت المذهب الإباضي وانتهى المذهب الاعتزالي بهدوء في وادي مزاب كما انتهى من مناطق أخرى من المغرب الإسلامي. انظر مقالنا: المزابيون المعتزلة، كل المقال. انظر الدرجيني: طبقات، 183-184/1.

1. ابن خلدون المؤرخ الوحيد الذي يذكر نسب مزاب بالتفصيل، وينسبهم إلى جدّهم مصاب أو مضاب: انظر: العبر، المجلد 129-127، 123، 7/ ط بيروت 1971.

2. هكذا نلاحظ المؤلّف يعود إلى استنتاج الحقيقة استنتاجاً؛ لعدم توفر المصادر في زمانه، وفعلاً انضوى الجميع السكان الأصليون من المزابيين ومن انضاف إليهم من الإباضية، تحت المذهب الإباضي وتسمية المزابيين؛ لأنهم هم الأغلبية وليس العكس، ولأن النازحين تعلموا المزابية ونطقوها فانصهروا في الأغلبية.

3. النازحون الغالبون بمذهبهم الإباضي على المذهب المعتزلي، ولكنهم أقلية. أمّا السكان الأصليون الذين هم أيضاً غلبوا ببقاء تسميتهم ولغتهم المزابية، فصيغوا الجميع بها، فكل من سكن المنطقة وأقام فيها دُعي مزابياً، وحتى الوادي أخذ تسميتهم فيقال: وادي مزاب.

إلى أن تغلب البربرية على ألسنتهم، وهذا ما نراه أدنى إلى المعقول لاسيما حين نرى النسّابين المزابيين يصرون على وصل العشائر الميزابية لا بالنسب العربي فحسب، بل بالنسب النبوي. وبديهي أن هذا لا يكون قائما على أسس قابلة حتى لمجرد الالتفات، بيد أنه في نفس الوقت يدلنا على أن العنصر العربي لم يكن موجودا بين النازحين الأولين فحسب، بل كان ظاهرا أيضا¹.

ومن الواضح أننا لا نريد بهذا أن ننكر ولا أن نستبعد أن من المزابيين من تفرع عن الدوحة الهاشمية أو القرشية، فبالرغم من أننا لا نعرف في الإباضية الأولين من كانوا من سلالة بني هاشم²، وبالرغم من أن مظاهرة الهاشميين وخاصة/12/ في العصر الأول لمذهب ركيخته الأولى إنكار ما يروونه حقاً لهم من وراثة الملك أو على الأقل من امتياز السلالة امتياز رفعة واصطفاء، أمر لا يخلو من غرابة وشذوذ، فإننا لا نرى غرابة في احتمال أن يكون من السلالة الهاشمية من ظاهر مذهبها يقوم على أساس عدم الاعتراف بالامتياز الهاشمي³ وذلك إما بدافع اليأس من أن يعود للفرع النبوي من هذه السلالة الحق الذي تدّعيه، وإما بعامل حرية الفكر وسمو النفس من

الرستمي¹، ودراسة سطحية للغة المزابيين توضّح لنا كيف أنهم لم يخلصوا بألسنتهم لهجة معينة من اللهجات البربرية كلاً، ولا للهجة أمشاج من اللهجات البربرية أو معظمها، فالألفاظ العربية تكوّن من لغتهم جانباً ظاهراً، وإن كانت «البربرية» أو «التمزيب» قد غيرت صيغتها بحيث تتجانس مع الألفاظ الأخرى التي تكوّن/11/ الجانب الآخر من هذه اللغة. و الأمر الوحيد الذي يمكن الاطمئنان إليه هو أن الجانب الغالب من أولئك النازحين الأول أو على الجانب الذي كانت له السيادة والكلمة فيهم هو من مختلف البطون البربرية، تدلّ على ذلك أسماء الشوارع وبعض أعلام الرجال والنساء «في المدن الأسبق إنشاء من مزاب»²، فهناك من أسماء الشوارع منها أسماء لا تزال إلى الآن أعلاما على مدن وقرى في منطقة «القبائل الكبرى»³ بالجزائر، و«جربة»⁴ بتونس، والمدن البربرية بالمغرب الأقصى. وفضلاً عن ذلك؛ فإن غلبة الكلمات ذات الأصل البربرية على اللغة الميزابية دليل على أن الجُمهرة الغالبة من النّازحين إمّا أن يكونوا بربراً صرحاء، أو أن يكونوا متبربرين، أعني عرباً وفرساً هاجروا منذ أول الفتح إلى الجزائر فاضطرّتهم مقتضيات التعامل

1. هذا الاستنتاج صحيح، فالعناصر النازحة خليط من الأجناس، خاصة إذا جاؤوا من تيهرت عاصمة الرستميين إلى وارجلان محافظين على إباضيتهم ومنها إلى مزاب. فتيهرت كما يقول عنها يعقوبي كانت تسمى عراق المغرب؛ بما ضمته من أجناس ومذاهب شتى. يعقوبي: البلدان، 104.

2. الجملة بين شولتين ناقصة في نسخة «ذ».

3. القبائل الكبرى؛ منطقة شرق الجزائر العاصمة، ومن أبرز مدنها تيزي وزو، وهي عاصمة الولاية.

4. جزيرة جربة؛ الجزيرة الصغيرة التي عرفت تاريخاً حربياً طويلاً ضدّ النورمانديين، ويسكنها البربر الإباضية إلى اليوم مع إخوانهم العرب. وهي في جنوب شرق تونس العاصمة. انظر سالم بن يعقوب: تاريخ جزيرة جربة، تونس 1986. وانظر قاسم بلحاج عيسى: صفحات من تاريخ جربة، تونس 1982.

1. يذكر اطفيش فعلاً أن بعض عشائر وادي مزاب من أصل عربي، بل وبعض العائلات من قبيلة قريش من بني هاشم. القطب اطفيش امحمد: الرسالة الشافية ط حجرية، ص-36 47-48، 42-43، 37، وغيرها. وانظر سماوي: العزاية، 576-570.

2. من أئمة الإباضية الأوائل من الأصل القرشي؛ محبوب بن الرحيل (ت أواخر ق2 هـ) وابنه محمد بن محبوب. انظر: معجم أعلام الإباضية، القرص المضغوط، قسم أعلام المشرق، العلم رقم 1110.

3. الامتياز الهاشمي أو حقّ بني هاشم في السلطة أو بالأحرى حقّ قريش في الإمامة وحقّ عليّ وبنيه ومن جاء بعدهم من سلالاته في الخلافة، إمّا هو مطلب لم يكن منذ بداية الخلافة، فبنو أمية ومن بعدهم بنو العباس هم الذين كرسوا مبدأ «القرشية» في الحكم. وجعفر الصادق في القرن الثاني الهجري كرس حق الإمام عليّ وبنيه في هذا الحكم، فتهمّموا بالمطالبة به.

من وجهة النظر العنصرية أن يُعتبروا عرباً أقحاحاً؛ لأنهم لم يخلصوا للأرومة العربية الصّراح، فهم إذن كما أسلفنا آنفاً مزاج أمشاج من أجناس مختلفة¹ جمعت بينهم مبادئ ومثُلٌ أولاً، ثم وُحِّدَتْ ألسنتهم ضرورة التعايش.

على أن هناك ظاهرة قد ترجّح نسبتهم إلى جانب العروبة وتلك هي الاستعداد الفطري الذي يمتازون به للتكلّم باللغة العربية، فما يكاد الواحد منهم يتّصل بالقراءة العربية حتّى يُخلص لهذه اللغة التي حدّ المرء أن يتساءل؛ ألا يمكن أن يكون هذا الاندماج في اللغة الطارئة دليلاً على أن العنصر العربي القحّ أرجح حظاً في أرومته؟ وهذه الظاهرة الفطرية خليقة بأن تجعل المزابيين أوثق نسباً بالعروبة حتّى من بعض القبائل التي تعيش في أطراف الجزيرة وحواليها، والتي انحدرت من سلالات غير عربية، ثم اندمجت في الأمّة العربية حتّى أضاعت لغاتها الأولى ولم يبق فيها من سيماء الهجينة إلا شذوذ يلحظه السّامع الذّواق في لهجاتها².

وأياً كان الأصل العنصر الأوّل للميزابيين فإنهم ظلوا أشدّ اتّصالاً وأوثق وشائج من غيرهم من البربر الخلص والمتبرزين حتّى من الوجهة النفسيّة المجرّدة، بالعروبة جنساً ولغة، وذلك لأنهم أوّلًا كأقليّة من حيث المذهبيّة، وثانيًا كفرع من مجموعة انتشرت فروعها هنا وهناك

1. هم في هذا كغيرهم في المناطق الحضارية ذات المجاذبية كتلمسان وقسنطينة تماماً لا فرق، الأغلبية لبني مزاب ومن جاءهم، تعلم لغتهم واعتنق مذهبهم، وربما يكون على المذهب الإباضي أصلاً، فيتمزّب باللسان لا غير.

2. هو احتمال بعيد، كما أسلفنا، فالمزابيون بربر زناتيون ولا جدال في ذلك، ولكن يمكن أن يكون منهم عرب انضموا إليهم، اعتنقوا الإباضية مذهباً، وتعلموا المزابية لهجة. أمّا نطقهم العربي الفصيح فيفعل محافظتهم على القرآن الكريم دراسة وحفظاً منذ الطفولة (إن نأشئة اللّيل هي أشدّ وطأً وأقومُ قبلاً) [سورة: الزمّل - الآية: 6].

التأثر بالرغائب أو النوازع الشخصيّة وخلوصها للعمل على ما تراه حقاً ابتغاءً لوجه الله. ولذلك فإننا نقف موقف المنتظر للأدلة التي يطمئن إليها البحث العلمي المجرّد إزاء ما يؤكّده بعض العلماء المزابيين من انحدار بعض عشائر مزاب من هذا الفرع أو ذاك من فروع بني هاشم وقريش، وما يؤيّده بعض حفظة الأنساب المزابيين من انحدار بعض تلك العشائر من فروع فارسيّة وإن كان تأكيد هؤلاء قد يجد مستنداً يعضده في أن الإباضية كان منهم في العصر الأوّل جانب كبير من الفرس، وكان لهم في فارس مجال وكانت لهم محاولات وأمال، بل كان مؤسس دولتهم في الجزائر الإمام عبد الرحمن بن رستم رحمه الله¹ وطائفة من أعضاده من الفرس، وكان الإمام نفسه من أبناء العائلة التي كانت مالكة عند الفتح الإسلامي لفارس². والذي يعنيننا من هذا كلّهُ هو إثبات أن المزابيين لا يمكن أن يعتبروا بربراً؛ لأنهم ليسوا بربراً صرحاء³، كما /13/ أنّه لا يمكن

1. عن عبد الرحمان بن رستم انظر: بحاز: عبد الرحمان بن رستم مؤسس أوّل دولة إسلامية مستقلة بالجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1990. والحقيقة أن هناك من يقول: إن عبد الرحمان بن رستم أصله من لذارقة الأندلس (جمع لذريق). انظر المسعودي: مروج الذهب، 357-358، 1/186.

2. لم يكن عبد الرحمان بن رستم من أبناء الأسرة الساسانية المالكة. وإنما قيل بأن جدّه هو رستم القائد الفارسيّ في معركة القادسية عام 16هـ/ 637م. وهذا ما قال به ابن خلدون: العبر، 225/6.

3. من الغريب أن يصرح الكاتب بهذا ويؤكّده وكأنّه الحقيقة المطلقة. فالمزابيون بربر صرحاء في البريرية، يعودون إلى جدهم مصاب أو مضاب، ومنه التسمية «مزاب»، وهم من زناتة البترية. ولا خلاف ولا جدال في ذلك. وهذا ما أكّده أبرز نسابة البربر، وهو ابن خلدون في عبره، انظر المجلد 129-127، 123، 7.

أمّا من انضاف إليهم وسكن معهم وأخذ منهم كما أخذوا منه بعض العادات والتقاليد؛ فهؤلاء أقلّيّة ذابت في الاكثريّة وليس العكس، واعتناق المزابيين للمذهب الإباضي وتركهم للاعتزال إنما تمّ عبر قرون عديدة، لأنّ الدعاة الذين جاؤوا بالمذهب إلى مزاب إنما هم قلة اتصلوا بالعلماء، وهؤلاء هم الذين نشره في أوساط مجتمعهم، وليس هناك أيّ عنف أو حرب ذات بال. عن اعتناق المزابيين للإباضية انظر الدرجيني: طبقات 185-184/1.

من أطراف الدولة الإسلامية، ومنها أطراف الجزيرة العربية^{1/14} على حين ما فتئت على اتصال وثيق ببعضها بعضاً لما يقتضيه واجبها المذهبي من التعاون والتناسق لا لنشر مذهبها فحسب، بل للعمل على إعادة تكوين دولها المندثرة، وعلى إنشاء دول جديدة لها في النواحي الأخرى، قد يُتاح لها فيما بعد أن تتحد على عمل جماعي كاسح للاستيلاء على مقاليد الخلافة الإسلامية ثم الانتظام على سمطها كوليات².

وبالرغم من المسافات الشاسعة التي كانت تفصل مزاب عن عُمان؛ فإن العلاقة بين الإباضية هنا وهناك ظلت مستمرة يتعهدّها تبادل الرسائل حيناً³ وتبادل التّزاور أحياناً. وإلى جانب ذلك كله؛ كانت الحروب المستمرة والمتعاقبة على الجزائر تدفع بالبدو، عرباً كانوا أو بربراً، إلى النزوح إلى الصحراء ابتغاءً للنجاة من الفتنة وطلباً للسكينة والسلام. فكانت نشأة المدن السبع المزابية مما يغري هؤلاء البدو، وجلهم من العرب الأقحاح، بالارتياح إلى أن يتخذوا لهم

1. يقصد هنا إقليم عُمان في أقصى جنوب شرق الجزيرة العربية وهو إقليم يغلب عليه المذهب الإباضي إلى اليوم.

2. يذهب المؤلف هنا بعيداً في التعليق على العلاقات بين الإباضية في المغرب والمشرق، في مزاب وعُمان مثلاً، فمن المعروف، ومما تناقله مؤرخو الإباضية جيلاً بعد جيل أنّ الإباضية لن تقوم لها دولة بعد دولة الرستميين التي سقطت عام 296هـ/ 909م. وذلك ما قاله يعقوب بن أفلح الرستمي الهارب من الفاطميين نحو وارجلان. وقال عبارته -التي ذهبت مثلاً- لما غرّضت عليه الإمامة في وارجلان: «لا يستتر الجمل بالغنم». الدرّحيني: طبقات: 1/106. وقد ثبت هذا في الواقع التاريخي لإباضية المغرب إلى اليوم.

3. من أبرز المراسلين لعُمان علمائهم وعامتهم؛ القطب الشيخ أمحمد بن يوسف اطفيش، فقد كان يستفتيه العلماء، وكان كثير المراسلة إليهم، ومن مراسلاته إليهم: «أجوبة لأهل عُمان» (مخ)، وكذا «جواب إلى محمد بن عبد الله الخليلي» (مخ). انظر معجم أعلام الإباضية، العلم رقم 864. وانظر محمد ناصر بوحجّاج: التواصل الثقافي بين عُمان والجزائر، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، مسقط، ط3، 2003م.

مضارب حول تلك المدن التي لا تُهيئ لهم أسباب الرّي حين يطبق عليهم جفاف الصحراء فحسب، وإنما تهَيئ لهم أسواقاً تنمو شيئاً فشيئاً تبعاً لنمو عمرانها، وفي تلك الأسواق يجدون مصرفاً لما تنتجه حيواناتهم من صوف ووبر وسمن ولحم، ويجدون ما يحتاجون إليه من بضائع، وأهمّها الملابس التي يُصنع أغلبها محلياً¹. كما تتيح لهم مورداً آخر يمدّهم بأسباب الحياة حين يتهدّدهم/15/ جفاف الصحراء، وهو تنظيم المواصلات على ظهور حيواناتهم بين مزاب والسواحل البحرية شمالاً وجنوباً².

وجليّ أنّ هذا التكامل والتكافل بين أسباب العيش للميزابين والبدو الذين أخذ ينشأ عليهما الاقتصاد الميزابي وينمو مع الأيام؛ يقتضيان التفاهم الكامل والدقيق بين الطائفتين، ويرميان إلى جانب العامل الديني والعامل المذهبي؛ غلبة اللغة العربية مهما حوّرهما التعامل اليومي وعدل بها عن الفصاحة عن أية لغة أخرى لتكون الأداة لهذا التفاهم الكامل الدقيق³.

1. اشتهرت المرأة المزابية بصناعة النسيج التقليدية، فهي تصنع الصوف وتهيته للنسيج منها جلابيب وقشايبات وبرانس وكذلك أفرشة متعددة شتوية عامة وللعروس، ولا تزال هذه الصناعة النسيجية قائمة في مزاب إلى اليوم، ويُحتفل بها وطنياً بعيد يستمر محلياً بعيد الزريبة، يقام في ربيع كل عام، ويقصده السواح من الوطن وخارجه.

2. عن علاقة التأثير والتأثر انظر: سماوي: العزابة، 622-631/2.

3. في نسخة «ذ» نجد العبارة التالية على شكل تساؤل للجلب انتباه المستمع إلى الحلقة المالية، وبها ينهي هذه الحلقة الثانية قائلاً: «بقي لنا بعد هذا العرض عن أصل سكّان مزاب أن نتساءل عن «المذهبية والميزابيين». ذلك ما سيكون محور حديثنا معكم أيّها المستمعون الكرام في الحصة المقبلة والسلام عليكم ورحمة الله».

1 ثالثا: الميزابيون والمذهبية²

يتألف سكان مزاب من أقلية مالكية وأغلبية إياضية، والإياضية من أشياخ عبد الله بن إياض³ التابعي؛ الذي يُنسب إليه هذا المذهب⁴، والمذهب الاباضي من أنصع وأقدم مذاهب الخوارج⁵، بيد أنه لم ينفرد بقول لم يشاركه فيه أحد المذاهب الأربعة. وما كان الخلاف بينه وبينها ليُمسّ بالأصول العقائدية، أو جوهر التعبديات، فهو يقول باستحالة «رؤية الباري»⁶، ويقول «بالخلود» و«يكفر

1. هذا النص لا وجود له في نسخة «ط» المعدة للنشر وموجودة في نسخة الإذاعة «ذ»، ولا هيئته ندرجه ضمن متن الكتاب.

2. بداية الحلقة الثالثة وجاءت بهذا العنوان فهو من وضع المؤلف.

3. انظر ترجمته الكاملة في معجم أعلام الإياضية. الترجمة رقم 774، في ط 1 الجزائر، ط 2 دار الغرب الإسلامي بيروت، أو القرص المدمج بنفس الرقم.

4. إمام المذهب عند الإياضية ليس هو عبد الله بن إياض، وإن نسبت إليه الإياضية. وإنما هو جابر بن زيد الأزدي أبو الشعثاء التابعي المحدث العالم المشهور، هو الذي كان عبد الله بن إياض يصدر عن رأيه، ولذلك كان مرثا، هادئا في مواقفه. عن جابر بن زيد وإمامته للمذهب الإياضي انظر: معجم أعلام الإياضية، ترجمة رقم 117. يحيى بكوش: فقه الإمام جابر بن زيد. د. عوض خليفات: نشأت الحركة الإياضية، 102-86، عَمَان 1978. د. صالح أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني وآثاره في الدعوة، ط3، مسقط 1417هـ/1997.

5. يُقصد بالخوارج هنا المحكمة الأولى الذين كانوا إلى جانب الإمام علي بن أبي طالب في معركة صفين عام 37هـ، ثم انفصلوا وخرجوا عنه لما قبل وقف معركة صفين والتحكيم؛ الذي جرّ لامة الإسلامية انقسامات كبيرة ومذاهب متعددة. والمحكمة لم يبقوا موحدّين إذ انشقوا إلى محكمة خوارج وهم الأزارقة والنجدات وغيرهم، ومحكمة قعدة معتدلين وهم الإياضية. وسيشرح المؤلف بعض مبادئ الإياضية وبعض معتقداتها.

6. عن الآراء العقديّة عند الإياضية انظر: فرحات الجعبري: البعد الحضاري للعقيدة عند الإياضية، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر. مصطفى وينتن: آراء الشيخ أحمد بن يوسف اطفيش العقديّة، المطبعة العربية، 1996، 132 وما بعدها. ابن دريسو مصطفى: الفكر العقدي عند الإياضية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، المطبعة العربية، 2003، 306-300. معجم مصطلحات الإياضية، مطبعة النهضة، مسقط، عَمَان، 1429هـ/2008م، المصطلحات: الرؤية، الخلود، الكافر، العاصي. وعن الآراء العقديّة بعامة انظر: فرحات الجعبري: البعد الحضاري للعقيدة عند الإياضية.

العاصي¹». وتلك هي أهمّ مسائل الخلاف بينه وبين الأشاعرة؛ إذا استثنينا مسألة «السدل في الصلاة» و«استنكار رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام»، فانت ترى أنّ الخلاف في «الرؤية والخلود»، ولا يعدو أن يكون سطحيًا إذ ليس ضروريًا في صحّة الإيمان. وأمّا الخلاف في «تكفير المعاصي» فهو مجرد اصطلاح لفظي، حيث أنّ الإياضية يقسمون الكفر إلى نوعين: كفر جحود وكفر نفاق، ويرون أنّ العاصي كافر كفر نفاق، أي منتهك لحرّمات الله. وإذا كان الإياضية يقولون بالبراءة من مقترف الكبائر وولاية ذوي الاستقامة؛ فما ذلك إلا نظام اجتماعي اكتسى صبغة المذهبية². وكان عاملا قيما لتقويم انحرافات المجتمع الإسلامي في أغلب الفترات البيضاء من تاريخه المجيد.

³ والمذهبية عند الإياضية ومنهم الميزابيون؛ لم تكن -في عهدها الأولى- تمثل شكلا دينيا تعبديا صرفا، بقدر ما تمثل شكلا اجتماعيا سياسيا، هو ما يمكن أن نسميه بدستور المعاملات أو بالأحرى دستور الدولة الإسلامية. فالإسلام ظلّ في رأيهم المصدر الوحيد لكل تصرّف فردي أو جماعي، ديني أو دنيوي، ولم يؤثر في هذا

1. الكفر عند الإياضية ليس على هذا الإطلاق، وهو عندهم نوعان: كفر شرك، وكفر نعمة. انظر المصطلحين في معجم مصطلحات الإياضية. وراجع المسألة في نفس المراجع المذكورة في الهامش السابق. وسيقيد المؤلف هذا الإطلاق فيما يلي.

2. انظر معجم مصطلحات الإياضية، المصطلح: التبريئ، جذر برأ.

3. قبل هذه البداية الفقرة الجديدة في النسخة «ط» نجد الرقم 3 مكتوبا بالأرقام الهندية.

الرأي - بالتخفيف¹ أو بالتحديد - حتى ما ورد عنه - صلى الله عليه وسلم - معنى قوله: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»². فالذي يتصفح الكتب الإباضية لا يفقد روح اللاهوتية حتى فيما هو أخص خصائص الحياة الدنيا، ولذلك كانت قسوتهم شديدة مسرفة على الإمام علي - كرم الله وجهه - حين استجاب لدعوة السلم فرضي بالتحكيم³.

وعلى هدي هذا الاعتبار؛ نشأوا بادئ الأمر ووضعوا/16/ مبادئهم ومناهجهم حتى ليكاد يكون بعيدا جدًا عن الدقة اعتبار المذهب الإباضي مذهبًا دينيًا بالمعنى الذي عُرفت به المذاهب الدينية لعهد التمايز المذهبي⁴.

ومعلوم أن ذلك العهد كان قد تأثر في جدله الديني بما تسرب إليه بعد الفتوحات من النظريات والمناهج الكنسية.

1. ورد في «ذ» عبارة: «بالتحقيق». وفي «ط» «بالتخفيف»، وهي الأصح. كما جاءت: «بالتخفيف أو بالتحديد» جملة اعتراضية تسبقها مطة، وتعبقها مطة في النسخة «ط».

2. حديث «أنتم أعلم بأمور دنياكم» انظره في صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا، رقم 4461.

3. أجد ما يراه المؤلف هنا من موقف المحكّمة من علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رأيا صائبا، فقد كانت المحكّمة قاسية على الإمام علي، وهو الخليفة الشرعي الذي حاربوا إلى جانبه في صفين، وكان الأجدر أن يمثلوا لأوامره وإن أخطأ في السياسة، فقد كان علي (ض) مجبرا في ذلك لا مختارا.

4. المذهب الإباضي من حيث جذوره في حركة المحكّمة، وبقيادة عبد الله بن إياض، مذهب سياسي، ولكنه في الحقيقة بعد عام 64هـ بعد انشقاق المحكّمة، قعد الإباضية بزعامة إمامهم جابر بن زيد الأزدي، وهو التابعي المشهور (ت 93هـ / 711م) لوضع منهج مذهب عقدي فقهي، فهو من أول المذاهب الإسلامية نشأة. نشأ في هدوء بعيدا عن الخوض في السياسة الأموية بعد فشل التجربة مع المحكّمة. ولم يأت تاريخ وفاة جابر بن زيد عام 93هـ؛ حتى كان الإباضية قد قعدوا لمذهبهم ووضعوا أسسه، وكل من جاء بعد جابر نسج على منواله في المذهب. انظر معجم مصطلحات الإباضية، المصطلحان: الإباضية، المحكّمة.

ولعل الأقرب إلى الدقة¹ أن يُعتبر هذا المذهب مذهبا سياسيا يقوم في تطبيق مبادئه على مناهجين²: الحزبية التي تقتضي قصر الدعاية على الوسائل السلمية والجدل العقلي والتأثير النفسي، والدعاية³ السرية التي يأخذ بها نظام الجمعيات المؤسسة على قاعدة التآمر والعمل في طي الخفاء.

والتاريخ الإباضي حافل بآثار هذين الاتجاهين معا. فبينما كان عبد الله بن إياض - رضي الله عنه - مجادلا وداعية؛ كان أبو عبيدة⁴ منظما للحركات السرية التي تهدف إلى إعداد أسباب الثورة وقيادتها، وإمدادها بما يضمن لها الاستمرار والانتشار والانتصار من ألوان الدعاية العلنية والخفية، العاملة على إثارة الأمة الإسلامية ضدّ الخلفاء الأمويين وعلى جميع من أُشربت قلوبهم مبادئ هذا المذهب وما تصل إليه أيديهم من مال وعتاد لنقله إلى الثوار. وكانت وسائلهم تختلف باختلاف ظروفهم، والأقطار التي يُتاح لهم أن يكونوا مقيمين فيها أو عابري سبيل⁵. وأهم هذه الوسائل - على ما يظهر - التعليم الذي كان يتيح لقاداتهم فرصة التأثير في الطلبة الشباب تأثيرا يقوى⁶ مع 17/ الزمن ويشتد حتى إذا بلغ

1. في «ذ»: «الواقع».

2. في «ط»: «منهجين».

3. الكلمة في «ط»: «الهاوية»، وهي غير ذات معنى، وفي «ذ» غير واضحة، ولكن السياق ورسم الكلمة الظاهر يوحيان بأن الكلمة هي «الدعاية».

4. أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي بالولاء (ت 145هـ / 762م)، هو الإمام الثاني للإباضية بعد جابر بن زيد. انظر ترجمته في معجم اعلام الإباضية، العَلَم رقم: 1363.

5. في «ط»: «أو زوارا».

6. في «ذ» سقطت كلمة: «يقوى».

من اللعنات. وقد حاولت الأخوات البيض المبشرات أن يتّصلن بالمرأة المزابية اتصال ودّ، واتخذن سبيلهن إلى ذلك بتقديم خدمات طبية مجانية، ولكن المرأة المزابية ظلّت نافرة من هؤلاء النصرانيات، مُبغضة لكل ما يأتي منهنّ، إنهن في رأيها لا يأتين عملا بريئا من الكيد للإسلام والمسلمين^{1/66}.

2. النظام الاجتماعي بوادي مزاب²

أ- التأديب الاجتماعي

يمكن أن نقول إنّ الدين، والمذهبية، والعنصر، والموقع، هي الدعائم الأربعة التي نهض عليها كيان المجتمع الميزابي، وقد سبق أن أشرنا إلى أثر المذهبية في تكوين وتكييف الحياة المزابية بصفة عامة. ومع أنّ المذهبية عند المسلمين كافة، سواء منهم من³ كانت أصول مذهبيّة سياسية، أو جدلية عقائدية، أو فقهية، إنّما ينبوعها الأول الدين، ومجالها التشريع الإسلامي، فإنّها عند الخوارج⁴ وخاصّة الإباضية، وعند الشيعة أيضا، تمثل دعامة مستقلة ذات فعالية مستقلة، باعتبار أنها من الحزبية السياسية، بصرف النظر عن

1. هذه نهاية الحصة 16. ونلاحظ أنّه لم ينهها كالعادة بعبارة «والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

2. بهذا العنوان تبدأ الحصة 17 من الحصوص الإذاعية التي كان المؤلّف مفدي زكرياء يحزرها لبثها عبر أثير إذاعة تونس ابتداء من صائفة 1955م.

والملاحظ أنّ هذا العنوان يشمل أيضا الحصة الماضية عن المرأة، إلا أنّ المؤلّف أّجله إلى هذه الحصة، ونجد العنوان الفرعي بعد ذلك: التأديب الاجتماعي، وهو موضوع الحلقة.

3. كذا في الأصل، ولعلّ الأصوب: «سواء منها ما».

4. نسبة الإباضية إلى الخوارج في هذا النص، لا تنمّ عن إقتناع، وإنّما نزولا على الشائع من الكلام عند الناس. فالإباضية تعود في جذورها إلى المحكّمة القعّدة، وليس إلى الخوارج. انظر: معجم مصطلحات الإباضية، المصطلحات: المحكّمة، القعّدة، الخوارج، الإباضية.

من التعايش الذي قد يبلغ مستوى العلاقات الودّية؛ لا يزال موجودا بينها وبين الأعرابيات من بنات ونساء الأحياء الضاربة حول مدن مزاب، والمتردّدة على مزاب حين تسعفه الطبيعة ببعض الخصب، وذلك لأنّ نوعا من المقايضة لا يزال يشكّل علاقات تجارية صغيرة بين الطرفين، فهؤلاء البدويات يأتين إلى المدن ببعض ما تنتجه الصحراء من مواد غذائية حيوانية، ومن حشائش يُستطبّ بها¹، ومن مصنوعات بدائية كالأطباق والقفاف المصنوعة من الحلفاء أو جريد النخل، وفي بيوت المزابيين يبعن بضاعتهم للنساء، ويشترين بما أصبن من نقود شيئا من الأقمشة والمواد الغذائية الواردة من مدن الشمال. وقد يختصرون المعاملة، فيتبادلن سلعا بسلع على أساس المقايضة المباشرة. وكثيرا ما تستشعر المرأة المزابية الألم المضني؛ لما عليه تلك البدويات من خصاصة، فتسخر² بعض ما عندها من غذاء وكساء، وبذلك اتصل نوع بنوع بين المرأتين: البدوية والدارجة إلى الحضارة.

والمرأة المزابية بفضل إسرافها في التدين؛ تفر³ من النصارى وأبداعهم⁴. فإن أبصرت نصرانيا من السّواح في شارع من شوارع البلد؛ دخلت أوّل بيت تلقاه واستدبرته، والتصقّت بالحائط اشمئزا وكراهة أن تبصر ظله، ولم تمر دون أن يتلقّى نصيبا موفورا

1. في الأصل العبارة غير واضحة جيدا، ولعلها: «بسببها»، والعبارتان متقاربتان.

2. الكلمة مطموسة تماما مشطوب عليها، وكُتبت كلمة أخرى بخط اليد هي الأخرى غير واضحة، لعلها: فتسخر.

3. في الأصل: كانها «تغير»، ولعلها «تنفر».

4. هكذا تبدو في الأصل: «وأبداعهم» ويسبقها حرفان مشطوبان، ولم نفهم معنى «أبداع النصارى»، إلا أن يكون مصنوعاتهم كالمذايح والبنطلون الأوربي وما شابه ذلك.

ببينهما فحسب، بل جامعة الوفاء. وأيضا لا الوفاء لتعاليم الدين باعتباره ديناً فحسب، بل لتعاليم¹ المذهب وأهدافه. وتلك هي الطبيعة التي تحاول كل جمعية سرّية ذات أهداف انقلابية سياسية أن تتخذ على ما يشاكلها العروة الواشجة بين أفرادها. وعلى هذا القانون اعتمد التشريع الميزابي والمدني والجنائي² والإداري. وما لا يمكن التزام الحرفية منه من التشريع الجنائي الإسلامي؛ فكان سلام هيئة «العزابة»³ لضمان استقرار الأوضاع العرفية والآداب الدينية، وللمحافظة على الوحدة الإقليمية والروابط الحزبية؛ تأديب المتمردين والمنحرفين بإعلان البراءة⁴ منهم. وعلى هذه «البراءة» أو بالأحرى هذا العقاب قام⁵ المجتمع الميزابي في ناحيته التشريعية والعرفية. أما ناحيته الخلقية، سواء منها الجانب المادي البحت وجانب التقاليد؛ فأساسها ما ورثه الميزابيون عن عناصرهم المختلفة: العرب والبربر والفرس، كما سلفت الإشارة إليه⁶. وما طبعته⁷ عليه موقعهم القاسي الذي اقتضاهم، ولا يزال مواصلة الجهد الكادح المضني في سبيل إبقاء مزاب على حضارة متطورة نامية. فالميزابي شجاع، أبي صلب عنيد، حريص على تقاليده أشد الحرص، مقدس لها أشد

مدى صلة هذه السياسة بالتشريع الديني، فيما يتصل بالأفراد أو الجماعة. ولذلك اعتبرنا المذهبية إحدى دعائم المجتمع الميزابي، ولسنا بحاجة إلى بيان أن الدين يمثل عند الميزابيين وكافة الإباضية، وعند الشيعة أيضا بصفة خاصة، الدستور العام لحياة المسلمين في أشخاصهم ومجتمعهم¹. وهاتان الطائفتان؛ الخوارج والشيعة؛ تمتازان عن سائر الطوائف الإسلامية في الإصرار على شمول هذا الاعتبار للدين لجميع نواحي الحياة، حتى فيما يتصل منها بعلاقة الفرد مع الآخر، العلاقة العادية التي يتطلبها التعايش والتساكن. وعلة هذا التمييز، أو هذا الإسراف في استحضار الدين في جميع شؤون الحياة؛ هي أن علة الوجود الطائفي لهاتين الطائفتين؛ إنما كانت التفسير الديني لنظام الحكم وأسلوبه. كما أن مادة التطور والاستمرار لهما؛ إنما هي المحافظة على تطبيق مقتضيات هذا التفسير، تلك المحافظة التي تقتضي أن تكون جميع تصرفاتها قائمة على استلهاهم الدين. وقد ازدادت هذه المحافظة وثقا وشمولا عند كليهما حين استحالتا إلى جمعيتين سرّيتين تعملان لتحقيق أهدافهما على أساس التضامن الوثيق القائم بين الأفراد التابعين لكل واحدة منهما. وبالنسبة إلى الإباضية؛ فقد تشكلت هذه النزعة في شكل ولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص. هذا/ 67/ القانون الذي يحصر العلاقة الفردية بين أتباع هذا المذهب في التضامن الديني، بحيث لا يمكن لفرد أن يأمن لفرد آخر إلا حين يطمئن، لا إلى جماعة

1. الدين يمثل عند المسلمين بجميع مذاهبهم؛ الدستور العام لحياتهم، في أشخاصهم ومجتمعاتهم، وهذا ليس خاصا بالإباضية أو بالشيعة. والحقيقة أننا لم نفهم ما يريده المؤلف من تضيقه لهذا الأمر، وحتى ما يأتي من تفسير بعد هذا؛ لا يوضح كثيرا ما يقصده.

1. في الأصل: «التعاليم».

2. في الأصل: «الجناسي».

3. في الأصل: (الغرابية). والصحيح ما أثبتناه.

4. الولاية والبراءة: ولاية المسلم الموفي بدينه، والبراءة من الكافر ومن الموحّد العاصي المصّر؛ أمران واجبان عند الإباضية. انظر عن المصطلحين: معجم مصطلحات الإباضية.

5. في الأصل: «قان»، والصحيح ما أثبتته.

6. انظر المبحث الخاص بأصل الميزابيين في هذا الكتاب.

7. لعل الأصح: «وما طبعهم».

التقديس. وتلك بعض شيم البربر والعرب، وهي إلى ذلك¹ الشيم الغالبة على كل ما² كانت البداوة أدنى إليه؛ لأن البداوة تقتضيه³ أبدا حياة الغلاب، وحياة الاستعداد⁴ للغلاب. والميزابي كريم مضيف، رؤوف بالمساكين والفقراء، حريص على الكسب وكادح في سبيله، حريص على الأذخار، بصير بطرق الكسب وأسباب التوفير، صبور مثابر، مريد لا يلين⁵ لقسوة، ولا يخضع للعراقيل والعقبات. وتلك آثار مغالبة القسوة والجفوة والجفاف في أرض مزاب، ملعب العواصف والأعاصير، القائمة - كما سلف أن ذكرنا - على طبقة مجصصة مسطحة الأفق، لا ينبت فيها تلقائيا، وبدون عمل إنساني جاهد، إلا نبات ضئيل متوحش. ولا يكاد الإنسان يعثر على الماء فيها إلا بعد أن يخترق⁶ من أعماقها طبقات قد يجد فيها بعض اللين، وقد تكون كلها صخورا⁷ صماء. وتلك حالة تبث في النفس الشعور بالعزة حين تغلب، والشعور بالرحمة والرافة حين يواجهها ضعف الآخرين، والشعور بقيمة الكرم والضيافة؛ لأنهما قد يخففان على الضيف بعض ما واجهته به طبيعة الموقع من عناء. وكذلك اتسم الخلق الميزابي بالعناء مع الطبيعة عناء

يبلغ التحدي /68/، والاستسلام لله استسلاما يرى حالات العزة في أقصى حالات التذلل والخضوع. ولهذا كان؛ ولا يزال الوازع الديني هو الزاجر ذو الأثر العميق للميزابي إن لم يزره من أعماقه، فهو يزدجر له حين تجبهه¹ به السلطة الدينية. وهنا مكمّن السرّ فيما² لا يزال لعقوبة البراءة من تأثير. و«ولاية الأشخاص» و«براءة الأشخاص»³ أساس لا يعتمد عليه التشريع الميزابي فحسب، ولكن تعتمد عليه وشائج القربى والمصاهرة. فالميزابي بعيد⁴ عن أقاربه؛ لا يكاد يصهر إليه أحد ولا يعترف له برحم؛ إذا عُرف بفاحشة عرفية أو شرعية؛ حتى وإن لم تتوفر الأدلة عليها ضده لدى الهيئة الدينية، فتصدر عليه حكما. ولذلك كان الميزابيون بطيعين جدا حتى في تطوّرهم الشكلي المتعلق باللباس ومظاهر الوجه. فاللباس الأوربي لم يجرؤ الميزابي على ارتدائه حتى خارج مدن مزاب إلا منذ سنوات؛ لأن التقاليد التي اتخذت⁵ شيئا فشيئا صبغة الاعتبار الديني؛ تقتضي أن يحتفظ الميزابي بما كان يرى سمت وقار من الملابس الفضفاضة البعيدة عن التجسيد. لا بناء⁶ على أن عناصر مزاب الأولى لم تكن تتخذ هذا النوع من اللباس فحسب، بل على

1. هكذا في الأصل، ويبدو أن الأصح: «تلك».

2. هكذا في الأصل، ولعل الأصح: «من».

3. لعل الأصح: «تقتضي».

4. في الأصل: «الاستعداد».

5. في الأصل: «يليل».

6. في الأصل: «يخترق».

7. في الأصل: «صخور». وهو خطأ نحوي بَيّن.

1. لعل الصواب: «تجاهه».

2. في الأصل: «فيها».

3. انظر هذين المصطلحين في معجم مصطلحات الإباضية: ولاية الأشخاص، براءة الأشخاص.

4. في الأصل: «يعيد»، وهو خطأ بَيّن.

5. في الأصل: «تخذت» بدون ألف.

6. في الأصل: «لا بناء».

أنَّ الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والصحابه التابعين¹، لم يُعرف عنهم هذا الشكل. بل لقد رُوي عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ (نهى عن لبس السراويل المخرفجة)².
على أَنَّ موقف الميزابيين من أمر الوجه أشدَّ صلابة وعنفًا. فقد لبثوا وما يزال حتى المثقفون منهم إلى الآن يرون أَنَّ حلق اللحية من كبائر الإثم. وحثَّتهم في ذلك من الوجهة الشرعيَّة ما روي عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من فعل وقول. إن اختلفت معانيه؛ فهو في أغلب معانيه متَّفِق على النهي عن حلق اللحية³. ونعتقد أَنَّ للتقاليد الموروثة أيضًا أثرًا في هذا التشدد الصلب العنيف. فلا تزال القبائل المحافظة من البربر والعرب⁴، وغيرهما من الشعوب الشرقيَّة، وخاصَّة الهند، شديدة الاحتفاظ، بل والاعتزاز باللحي، لاسيما حين تكون من الكثافة والانتظام، بحيث تضي

1. هكذا في الأصل. ولعلَّ الصواب: «والصحابه والتابعين».

2. حديث النهي هذا عن السراويل المخرفجة رواه أبو هريرة، كما جاء في لسان العرب عند كلمة «خرفج». والخرفجة؛ حسن الغذاء في السعة. وسراويل مخرفجة؛ طويلة واسعة تقع على ظهر القدم. وقُسر الحديث على أَنَّهُ إكراه إسبال السراويل. ابن منظور: لسان، 1/819. أبو السعادات المبارك الجزري: النهاية في غريب الأثر، باب الخاء مع الراء، الجزء 2، ص 67.

وكلمة مخرفجة لم نفهمها. وجاءت شبه مطموسة في الأصل. والحقيقة أَنَّ تشبُّث وتعلُّق الميزابيين بالسراويل الفضفاض الذي يُدعى عندهم: السراويل العربي، إمَّا هو تعلُّق بلباس يختلف عن لباس النصارى، وقد أمر المسلمون ألاَّ يتشبهوا باليهود والنصارى. ثم كذلك؛ هو التعلُّق بالعادات والتقاليد التي يريد الاستعمار الفرنسي القضاء عليها. فالميزابيون حاربوا الاستعمار حربًا ثقافيَّة مستميتة مستمرة بالإبقاء على لباسهم التقليدي، وعدم التقرب منهم والتشبه بهم.

3. الحديث في مسلم: (خالفوا المشركين، وقروا اللحى، واحفوا الشارب)، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم 259.

4. في الأصل: «البربر العرب».

على الوجه نوعًا من الجلال والجمال «الكلاسيكي». ومن قانون ولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص¹ نشأ وتركَز في نفوس الميزابيين خُلُق الامتثال أو الطاعة الحزبيَّة، حتى أصبحت فيهم ظاهرة ترقى عن مستوى الظواهر الاجتماعيَّة العامَّة إلى مستوى الطقوس التبعديَّة. ذلك لأنَّ الميزابي دُرِّب على أن يستقبل آليًا -شيئًا فشيئًا- بشكل لاشعوري أوامر «العزابة»²، لا على أَنَّها تشريعات تنظيميَّة مدنيَّة، بل على أَنَّها استنباطات من التشريع السماوي المقدَّس. وبذلك اتخذت تعاليم المذهب؛ حتى فيما يتصل منها بالمحافظة على الكيان أو الطابع المذهبي / 69 / أو الإقليمي؛ صبغة التعاليم الدينيَّة. وهذا الخلق هو الدعامة التي نهض عليها نظام التعايش بين المتساكنين³ في مزاب، على تفاوت أعمارهم ومراكزهم الاجتماعيَّة. فمهما يبلغ الميزابي من الثروة والجاه أو العلم؛ فلن يستطيع أن يعامل من يكبره سنًا وإن ببضعة أعوام غالبًا، إلا على أساس التوقير والإجلال؛ لأنَّ العرف الميزابي درج على إسناد المسؤوليَّات المختلفة من مسؤوليَّة إدارة العشيرة⁴، إلى مسؤوليَّات السلطتين التنفيذيَّتين: الدينيَّة والمدنيَّة، إلى من تقدَّمت به السنُّ شيئًا ما، اعتمادًا على أَنَّ هؤلاء يكونون غالبًا أوفر تجارب، وأكثر حنكة ودراية، وأنفذ بصيرة، وأحصف رأيًا. وحتى في المجلسين: الديني والمدني؛ تنحصر

1. عن ولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص: انظر معجم مصطلحات الإباضيَّة، المصطلحين: ولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص.

2. في الأصل: «الغرابة». وهو خطأ، وقد سبق مثله، والصحيح ما وضعناه.

3. المتساكنون في مزاب؛ يُقصد بهم الإباضيَّة والمالكيَّة، البربر والأعراب الذين تساكنا في المنطقة منذ أمد بعيد.

4. في الأصل: «العشيرة». والصحيح ما وضعناه.

في نطاق الحدود الدينية. ولكن الميزابيين -مع ذلك- خضعوا لهذا التشريع، سواء كان ذلك نتيجة منهم لبواعثه وأهدافه، أم نتيجة توقير للكبار المسؤولين، والخضوع الذي يقتضيه النظام الحزبي. وقد يكون للتقاليد الموروثة أيضا أثر غير يسير في تركيز هذا التشريع. فالملاحظ أن المناطق التي لا تزال محتفظة بتقاليدها؛ من مواطن البربر، سواء منهم بربر النجاد العليا، وبربر الشمال، وأن بعض /70/ المناطق العربية، أو التي يغلب العنصر العربي على سكانها، والتي تمتاز بنوع من التقاليد الخاصة، لا يزال يسودها عرف على غرار هذا التشريع. فخروج المرأة منها أمر مستكره أو محظور. على أن هذا التشريع عند الميزابيين لم يكن خاصا بإخراج المرأة من مزاب إلى خارجه فقط، بل شمل أيضا وضع قيود محرجة للخروج بالمرأة من مدينة إلى أخرى من مدن مزاب. وذلك نتيجة لحالات كانت تسود العلاقات بين تلك المدن في الظروف التي وضع فيها هذا التشريع، بحيث وسمتها بسمه عدم الانسجام، وربما بلغت العلاقة بينها إلى مستوى الجفاء. وفي هذا تعليل ظاهر للباعث على هذا التشريع بأنه لم يكن إلا سياسيا صرفا. وواضح أن الميزابي الذي خضع لأمثال هذه التشريعات؛ لأن الصبغة الدينية أضيفت عليها، أو طاعة لخلق التوقير. والخضوع الحزبي أولى بأن يخضع لما هو من صميم الدين، سواء كان تشريعه بالنص أو بالاستنباط. ولذلك ظل الميزابي -إلى عهد قريب- من أشد الناس تحرجا من المحرمات؛ حتى ما كان منها من صغائر الإثم أو مما اختلف العلماء فيه كراهة أو تحريما. وظلت مدن مزاب باستثناء «غرداية» تشبه إلى حد كبير بعض المدن التي يقدمها أتباع الأديان الأخرى. فبيع الخمر فيها محظور؛ حتى للأجانب. وكذلك التدخين والتبجح بما لا يتفق والوقار الديني،

المنافشة غالبا بين الأكبر سنا من الأعضاء، إذ يجد الأعضاء الأصغر سنا كثيرا من الحرج في مواجهة شيوخهم بالمناقشة. وفي حلقات الدين نفسها؛ يلجأ الطالب حين يشتبه عليه أمر، أو يحتاج فيه إلى مزيد من التوضيح؛ أن يصوغ ما يترأى له في شكل سؤال التي¹ يتقدم به إلى أستاذه في كثير من الخجل والارتجاف. وظاهرة أخرى قد تكون هذه القاعدة أجلى فيها وأوضح؛ هي ظاهرة الخضوع الذي ظل إجماعيا -إلى عهد قريب- لتشريعات وضعت منذ حوالي ثلاثة قرون، استجابة لمقتضيات ظروف ذلك العهد. وكان واضحا منها أن ما أريد إضفاؤه عليها من الطابع الديني؛ إنما هو استعانة على تركيزها وإقرارها بالتحرج الديني، إذ ذاك كالتشريعات المتعلقة بعد تبعية المرأة لزوجها في ترحاله. فقد خشيت الهيئة الميزابية التشريعية يومئذ على حرم الميزابيين أن تكون عرضة لما ينجر على قوافلهم بين مزاب ومدن الشمال الجزائري،² الصراع من قطاع الطرق المحترمين أحيانا، ومع القبائل البدوية المقيمة على حالة حرب مع الميزابيين حالة أخرى، سواء كان ما قد ينجر عليهن سببا أو إهانة، فما كان الناس يومئذ في الصحراء يلتزمون الحدود الدينية في حرم المسلمين. فأصدرت تلك الهيئة قانونا يمنع المتزوجين من السفر بعائلاتهم، ويمنع النسوة من طاعة أزواجهن إلى ذلك إن أرادوهن عليه. وتأمّر السلطة التنفيذية بإجبار من تطيع زوجها أو برغم زوجه على العودة بها إلى الوطن بكل وسيلة.

وواضح أن هذا تدخل غير مستساغ في الحالات العادية في العلاقات الزوجية، وما ينبغي أن تقوم عليه من استقلال وحرية

1. هكذا في الأصل. ولعل الأصح إزالة «التي» فيستقيم المعنى.

2. بين هاتين الجملتين خلل في الربط.

كألفاظ المجون أو السباب، وخاصة منها ما ينال من هيبة الدين وقداسته¹. وقد احتفظ الميزابي على هذا الطابع؛ حتى خارج مزاب، وإن كانت المخالطة والمعاشية قد دفعت بجانب من التجار خارج مزاب إلى الجراة على اقتراف بعض هذه المحظورات. بيد أن هؤلاء لا يزالون يحاولون الاستخفاء حين يقتربون شيئا منها. وقد بلغ التحرج في مزاب من كل ما يتنافى مع الوقار الديني، إلى حد أنهم تحرجوا حتى من الموسيقى، على الرغم من أن العلامة الخليل بن أحمد² - رحمه الله - أحد الأدباء المنتسبين إلى الإباضية في العصر الأول الهجري كان من أول من حاول ضبط قواعد الموسيقى العربية. وواضح أن هذا التحرج المسرف؛ كانت له آثار غير مرضية في تكوين الذوق الميزابي بالنسبة إلى بعض النواحي الروحية. لكن خسارتهم هذه تتضاءل إذا وُزنت بمكاسبهم الخلقية التي حفظت مجتمعهم من مفاسد شتى يجرها عادة التطور الحضاري.

وقد لبثت «غرداية» محتفظة بهذا الطابع كسائر مدن مزاب؛ حتى اتخذها الفرنسيون عند إعلان احتلال مزاب مركزا لإدارتهم، وابتنوا فيها ثكنة عسكرية³. وعندئذ أُجبرت على أن تقبل بناء

(¹) وخمّارات خارجها²، بحجة أن الفرنسيين وجنودهم لا يستطيعون التخلي عن عاداتهم. ولا تزال غرداية إلى الآن؛ تحرص كل الحرص على أن تسلم دواخلها من هذه الآفات³؛ وإن 71/ كان التطور قد وصلها بالبور الفرنسية، على أن التشريع قد عاد رغم قسوته، بل بتلك القسوة نفسها، بفوائد اقتصادية على الميزابيين، ذلك بأنه عني بالحد من بعض تصرفاتهم العامة والخاصة؛ حتى لا تكون فريسة لسباق المترفين⁴، ومظهرا للتباين الطبقي بين السكان. ومن ذلك تحديد المهور ونفقات حفلات الزواج والمآتم وبعض الحفلات الاجتماعية في المواسم والأعياد الإسلامية. وبفضل هذا التحديد ظل الزواج ميسورا نسبيا إذا قورن ببعض المناطق التي ترك فيها مجالا للتظاهر بالثراء والتفاخر بين الأسر، والتزايد بين الخطاب⁵ 72/.

ب- نظام الأسرة الميزابية⁶

الأسرة الميزابية وحدها قائمة بذاتها، تتمتع بمطلق السيطرة والسلطان في حدود نظم المدينة وتشريعاتها. فهي تبتدئ من العائلة، حيث يبسط الكبير في السن جلاله ووقاره ونفوذه عليها.

1. فراغ في الأصل قدر كلمة أو كلمتين صغيرتين. لعلهما: «دور بغاء».

2. أي خارج أسوار المدينة.

3. في الأصل: «الآفاق».

4. هذه الصفحة جاءت باهتة الخط أصلا، وهي الأسطر الستة الأخيرة في الحلقة 17. فإن لوحظ بعض الارتباك في الأسلوب أو المعنى؛ فلعله مما لم يُؤق في قراءته من كلمات.

5. هنا تنتهي الحلقة 17 من الحصص الإذاعية. والملاحظ أنها تنتهي بدون عبارة: «والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

6. بهذا العنوان تبدأ الحلقة 18 من الحصص الإذاعية، ويبدأ بعدها المؤلف مخاطبة المستمعين هكذا: «سيداتي سادتي، الأسرة الميزابية».

1. في الأصل: «قداسة». والصحيح ما أثبتناه.

2. الخليل بن أحمد الفراهيدي؛ أحد علماء الإباضية والإسلام، أصيل عُمان، ونزيل البصرة بالعراق، هو العالم اللغوي، واضع أول معجم في اللغة العربية: كتاب العين، وواضع علم العروض وبحور الشعر، وواضع الحركات للكلام العربي. فهو لم يكن عالم دين وفقه. انظر معجم أعلام الإباضية، قسم أعلام المشرق، العلم رقم 300 في القرص المضغوط. نشر جمعية التراث. الجزائر 2001م. وانظر أعمال الندوة الدولية حول الخليل بن أحمد الفراهيدي، وحدة الدراسات العمانيّة، جامعة آل البيت، الأردن، مجلدان، 1428هـ/2007م.

3. هي في موقع «فندق مزاب» حاليًا المطل على الملعب البلدي لغرداية على جبل قليل الارتفاع.

ثم تأتي العشيرة التي تشبه الخلّة في الأحزاب، حيث يجتمع عدد من الأفراد الحيّ¹ لهم سلطة ومسؤولية في كامل الحيّ. وبعد ذلك تأتي الجماعة وهي مجموع العشائر، ومجلس الجماعة يشبه المجلس البلديّ في كثير من الاختصاصات، غير أنّ هذه النظم والتشكيلات في مزاب تمتاز بطابع التعاون والألفة العائليّة، سواء فيما بين الأسرة والعشيرة، أو الجماعة في المدينة الواحدة، أو فيما بينها في مدن مزاب بأجمعه. هذه مقدّمة للحديث عن الأسرة الميزابيّة، والآن نبحث نظّمها بالتفصيل:

كبير الأسرة موقّر أثير في أسرته، فإذا دخل المنزل انسدل معه على ذلك المنزل وقار وجلال، وهو ليس بفظ غليظ، بل يحاول أبداً أن يضفي ظلال المرح والسرور على محضره، ولكنّه مع ذلك لا يسرف في المباسطة والمداعبة إبقاء على ما ينبغي أن يكون بين الكبار والصغار من سياج الوقار².

وقد كانت الإذاعة ممنوعة في المنازل الميزابيّة إلى عهد قريب¹. وكانت الهيئة الدينيّة تعلن البراءة ممن يُدخل جهازاً إذاعياً أو حاكياً لأنّ هذه الأجهزة تنقل فيما تنقل الموسيقى والأغاني، وتلك خليقة بأن ترفع سياج الوقار بين الأسرة وصغارها. بيد أنّ هذا الحظر قد قضى عليه تيّار الحضارة، فغمرت الأجهزة البيوت، ولم يعد كبير العزّابة يتحرّج من مسامرة ذويه كباراً وصغاراً على أنغام الموسيقى²، ما لم تنزل³ إلى الإسفاف. وبقدر ما يستشعر عميد الأسرة من سلطان في منزله؛ يستشعر الطاعة والخضوع أمام رؤساء عشيرته؛ حتى وإن يكن منهم. فمجلس العشيرة له في نفوس الجميع إلى عهد قريب؛ قداسة وجلال.

وفي هذا المجلس تتمثّل جامعة الأسر التي تتألّف منها العشيرة⁴ وتتشخص السلطة التنفيذيّة لكلّ وحدة من وحدات المدينة التي

1. كان التقاط أثير الإذاعة وامتلاك أجهزة الاستقبال (الذياع) حراماً في مزاب، حرّمه العزّابة من باب الحرب الثقافيّة على الاستعمار، كما حرّموا استقبال الكهرباء والماء، وكلّها لمقاطعة فرنسا من جهة، ولعدم تمكينها من دخول بيوت المزابيّين، ومن ثمة قلوبهم من جهة ثانية. فهياة العزّابة تعلن مقاطعة البضائع وكلّ تطوّر في الاتّصال من باب الاحتياط أيضاً. وقد أمرت بتحريم التلفزيون في حينها لما دخلت مزاب في السبعينيّات من القرن العشرين، اتّقاء إثمها وفسادها، على اعتبار أنّ إثمها أكبر من نفعها، وهذا من جهة ثالثة، فضلاً عن سيذكره المؤلّف في السطور الموالية.

2. أن يكون هذا الأمر بهذا الإطلاق، غير وارد البتّة. فالموسيقى في المذهب الإباضي لا تزال حراماً. واستماع عموم العزّابة إليها، فضلاً عن كبيرهم؛ أمر لا نراه حدث في زمن المؤلّف في الخمسينيّات من القرن الماضي حتى وإن لم تنزل إلى الإسفاف.

3. في الأصل: «تتنزّل».

4. عن الأسر المزابيّة وانتماؤها إلى عشائرها في كلّ قصور وادي مزاب؛ انظر محمّد بومعقل: عشائر وألقاب الإباضيّين الجزائريّين، بلا معلومات الطبع. وهو كتاب مهمّ رائع، في باب ضبط أسماء الأسر والعشائر، وتحدّث عن الأسر المنقرضة، وضبط عدد الأسر والعشائر في كلّ قصر بمزاب.

1. هكذا في الأصل: «الأفراد الحيّ». ولا معنى له في السياق. يبدو أنّ هناك سقطاً بعد كلمة «الأفراد»، يتعلّق بالعشيرة، وسقطا يتعلّق بالحيّ. ولعلّ الصواب: «أفراد الحيّ». وسيخبرنا المؤلّف بأنّ الذي قاله هنا هو مقدّمة عن الأسرة المزابيّة. وسيأتي التفصيل.

2. لا يزال الكثير من أرباب الأسر المزابيّة إلى اليوم، يمارسون هذه الضوابط في أسرهم، وهي من صميم التربية والعلاقات الأسريّة في الإسلام، إلا أنّ الكثير أيضاً اتّجه اليوم إلى ضوابط وتوجيهات التربية الحديثة التي ليست دوماً موفقة ناجحة. في الأصل لا وجود لعودة إلى فقرة جديدة.

تسمى «العشيرة». وتكاد العشيرة عند الميزابيين تمثل جامعة الخلايا التي تشبه من عدة نواحي؛ الخلية في النظم الحزبية. وعلى الرغم من أن كثيرا من الأوضاع العرفية في مزاب قد اضمحل أمام مقتضيات العقلية الحضارية؛ فإن نظام العشائر لا يزال يحتفظ 73/ ببقية من هيئته؛ وإن تكن هذه الهيبة قد تضاءلت كثيرا.

والعشيرة تمثل في المجتمع الميزابي وحدة اجتماعية، مهمتها إقرار التكافل الاجتماعي بين أفرادها. فعليها أن تأخذ بيد الضال، وتكبح جماح المنحرف، وتنهه¹ من شدة المتمرد بكافة الوسائل، بما في ذلك الجلد والنفي. وعليها أيضا أن تقوم بتدبير العمل للعاطل، والمعاش للعاجز، وبحماية من يُعتدى عليه من أبنائها، وفوق ذلك كله؛ تمثل وحدة انتخابية تقوم مقام الدائرة البلدية. فهي التي تنتخب من بين أفرادها نائبا عنها في مجلس الجماعة القائم بأعمال المجلس البلدي إلى الآن². ثم هي تضطلع بمسؤوليات تتصل بشؤون القضاء، فهي التي تكفل اليتيم، وتعلن الحجر على السفیه والمجنون، وتعين لليتامى الذين لم يوصي بهم آبائهم وكيفا يقوم بحفظ أموالهم تحت رقابتها، وهي بذلك تتحمل معه المسؤولية بطريق التضامن. وكان للعشيرة مجلس يجتمع كلما دعت الضرورة إلى ذلك، يشبه في معظم نواحيه مجالس القبائل البدوية، ولكن هذا المجلس قد بدأ يتضاءل كيانه ويضطرب، فلم

1. نَهْ، نَهْنَهْ عن الشيء فَتَنْهَنَهْ، أي؛ كَفَهْ وزجره فكَفَ. انظر: الرازي: مختار الصحاح، تدقيق عصام فارس الحرساني، دار عمّار، عمّان، الأردن، ط5/ 1421هـ-2001م.

2. يتحدث المؤلف هنا في النصف الثاني من عام 1955 وبداية عام 1956م.

يعد هنالك أفراد معينون يتألف منهم¹، بل أصبح في بعض الأحيان يجتمع كل من يتفق أن يكون في المدينة عند الحاجة إلى عقده من كهول وشيوخ، وربما من الشباب ذوي الشخصيات أيضا، والقاعدة الوحيدة التي لا يزال يحتفظ بها؛ هي القاعدة العددية، فلا يُعتبر² مجلس العشيرة منعقدا إذا نقص المجتمعون عن ستة. وفي الغالب تتخذ العشيرة ناديا لها تجتمع فيه، وتستضيف فيه من ينزل عليها من ذوي المقامات، ويسمى «دار العشيرة».

وكان مجلس العشيرة هو الذي يتولى اختيار من يمثل عشيرته في الجماعة البلدية. وهذا الاختيار لم يخلص إلى التعيين ولا إلى الانتخاب، فهو وسط بين هذا وذاك، إذ كان الكبار الموقرون في المجلس يتفقون فيما بينهم على الشخص المراد اختياره، وعلى الصغار أن يعلنوا موافقتهم. وهذا الاختيار أصبح أخيرا غير مقصور على هذا المجلس، بل حقا من حقوق العشيرة كلها حين تمضي³ للطريقة الانتخابية. فكل من يملك حق الانتخاب من أفراد العشيرة؛ يدلي بصوته إذا كان حاضرا في المدينة عند إجراء الانتخابات. ولم يعد هناك مرشح واحد، إذ لم يعد كبار مجلس العشيرة يتمتعون بذلك التفويض الذي كان لهم سابقا، فقد يترشح أكثر من واحد تبعا للمبادئ والنزعات التي أخذت تتسرّب إلى مزاب شيئا فشيئا

1. أما الآن؛ فمكاتب العشيرة أغلبها منتخب. وكذلك ضُبطت بقواعد تنظيمية وهيكلية حديثة، يسود أعضاؤها روح التضحية وهو من موروثات الماضي، والانضباط والنظام وهو من إيجابيات الإدارة الحديثة.

2. في الأصل: «يتعبر».

3. «حين تمضي» هكذا قرأناها؛ وإن ظلّ فينا شعور بارتباكها، فالكلمتان شبه مطموستان. ويمكن قراءتها كذلك: «حين تمحص» أو «تمخض».

لُتْراحم، وربما لُتْزحزح الاعتبار المذهبي المجرد للسياسية. وعلى هذا¹ الأساس أمكن التقرير الواقعي لحقّ المواطنة للقبائل غير الإباضية² الساكنة في بعض قرى مزاب، فأصبح نائبها يملك نفس الحقوق والواجبات التي كانت إلى عهد قريب من اختصاص النواب الميزابيين الإباضيين. ونتيجة لذلك؛ أصبح أفراد هذه القبائل أنفسهم لا يختلفون في اعتبارات /74/ المسؤوليات والحقوق عن مساكنهم الإباضية. وكذلك تقدّمت العلاقات بين الطرفين، فأصبحت تقوم على نوع من الاندماج السياسي التدريجي، دون أن تمسّ بالعقائد الدينية الخالصة، أو بما قد يكون بينها من التمايز في بعض العقائد والتقاليد. والجماعات البلدية في مزاب، أو جماعة «الضمان»³ كما لا تزال تسمّى في وصفها الحالي؛ تُنتخب كلّ ثلاث سنوات. وكانت تملك التصرف المطلق، كل في مدينتها، وجميعا فيما يتصل بالمصالح المشتركة لمدن مزاب، في إدارة وتشريع ما يمكن أن نسميه

1. «هذا» من إضافتنا؛ حتى يستقيم المعنى. وسوف يلاحظ القارئ مع ذلك ارتباكا في سياق الجمل التالية؛ وإن كان المعنى والمقصود مفهومين.

2. حقّ المواطنة للقبائل غير الإباضية في منطقة وادي مزاب؛ لم يكن موجودا، فكلّ من طرأ على الوادي هو غريب عنه، قصده للتجارة أو طلبا للعمل في الرعي والبساتين. ولذلك فإنّ قبائل الأعراب التي استوطنت مزاب، كانت في بداية قدمها غير مستقرّة، تسكن أطراف القصور، خارج الأسوار، دون أن تتمتع بحقّ المواطنة. ومع تقدّم الأيام والسنين؛ استقرّت الكثير من تلك القبائل نهائيا في الوادي، وانتمت إلى الوطن بحكم الأقدميّة، وأشركت في حقّ المواطنة مع الإباضية.

3. جماعة الضّمان أو مجلس الضّمان، وهو مجلس يتكوّن من ممثلي العشائر. وهو من هيئات نظام العشائر بقصور وادي مزاب، يتمثّل دوره في الإسهام في تسيير الأمور العامّة للبلدة، وإصدار القرارات التنظيميّة المشتركة بين العشائر، وغيرها من مهام. والضّمان جمع، مفردة الضّامن، وهو رئيس العشيرة. كان من مهامه في الفترة الاستعماريّة -فضلا عن رئاسته للعشيرة- ضمان جمع الإتاوات، مثل البزرت والكورفي، ودفعها للحاكم العسكري. انظر معجم مصطلحات الإباضية. المصطلح: الضامن، البزرت.

بـ «الشؤون المدنيّة» الصرفة، بما في ذلك ما يُعرف اليوم بخصائص المجلس البلديّ، وخصائص المجلس المالي، وبعض خصائص المجلس العماليّ، وبعض ما تقوم به الإدارات أو الوزارات، المختصة بشؤون الصّحة والأشغال العامّة، والرّيّ، وشؤون الأمن أو «الداخلية»، وشؤون الإنشاء والتعمير، على أنّها حتى في هذه الاختصاصات؛ كانت تخضع للحياة الدينيّة وتعاليمها؛ إذا رأت هذه الحياة أنّ من المصلحة أن تتدخل في شيء من تلك الاختصاصات. ولذلك كان من المتواضع عليه عرفا بشكل يشبه العُرف «البريطانيّ» القائم مقام الدستور؛ أن تجتمع الهيئتان في المدينة الواحدة للتشاور؛ إذا حدث أمر له خطر ممتاز، كأن تهتّد المدينة أو مدن مزاب بحرب خارجيّة، أو فتنة داخلية، أو يحدث في مدن الشمال الجزائريّ أمر يتصل من قريب أو بعيد بطبيعة العلاقات بين مزاب ومركز الحكم، أو بعض أوضاعه¹ في كافّة القطر.

² وخزينة الجماعة المدنيّة أو ميزانيّتها؛ تتكوّن من ضرائب قارة لا تختلف³ في شكلها كثيرا عن الضرائب البلدية الآن، ومن ضرائب استثنائية وقتيّة، تقرّها الجماعة إذا استجدّ في مدينة أمرٌ يستلزم نفقات إضافيّة، كأعمال عمرانيّة أو إصلاح شؤون الرّيّ، أو تشييد سدّ جديد، وما إلى ذلك. وكثيرا ما تكون الضريبة بدنيّة، كدعوة⁴ السكان مجتمعين أو أفواجا للقيام بعمل ما⁵، كمقاومة الجراد عند

1. في الأصل: «أوضاع».

2. في الأصل: لا وجود لعودة إلى فقرة جديدة.

3. في الأصل: «لا يختلف».

4. في الأصل: «دعوة»، أو أن الكاف مطموسة.

5. ويسمّى هنا العمل «تويرا». انظر عنها الحاج سعيد: تاريخ بني مزاب. 63.

غزوه، أو ترميم أحد السدود حين يجرف السيل جانبا منه، فيهدّد الفيضان المدينة، أو يخشى أن تنتفع الآبار بمياه، يستحيل عندئذ تخزينها¹.

أمّا الآن؛ فقد أخذت الإدارة الفرنسيّة تختصر اختصاصات هذه الجماعة، وتضيّق منها، بحيث لم يبق لها مثلا من التصرف في الشؤون الصحيّة العامّة سوى الإشراف على تنظيم النظافة العامّة للمدينة ونواحيها، كتنظيف الطرقات، وتجميل أبواب المساكن ومظاهرها، والسهر على عدم تجمع القذورات في المجازر، وتجميع الضريبة؛ ثم المباشر²، وكالسهر على شؤون الأمن داخل أسوار المدينة. أمّا ما عدا ذلك؛ فقد انتزعت الإدارة الفرنسيّة، ووكّلت معظمه للجنة³ أسستها من موظّفين فرنسيّين وأهالي تسمّى «لجنة البلديّة». وأعمال هذه الجماعة وقراراتها يتولّى تنفيذها غالبا ما بين ثلاثة وخمسة، تختلف ألقابهم باختلاف المدن الميزابيّة، ولكنّ وظيفتهم متعلّقة في أنّها تنفيذ ما ترى الجماعة/75/ في اجتماعاتها ضرورة تنفيذه، وليست للجماعة مواعيد معيّنة لاجتماعها، فهي تجتمع كلّما دعت الحاجة. وكان رئيسها يلقّب

قبل الاحتلال بـ«القائد»¹، ثم تدخل الاحتلال في هذا الأمر؛ إذ أجبر معظم الجماعات الميزابيّة على تغيير رؤسائها «القواد» الذين كانوا قد تولّوا كبرّ المقاومة العنيفة حيناً، والقائمة على المراوغة والمناورة حيناً آخر، بآخرين من ذوي الذمّ الخربة الذين استطاع أن يصطنعهم عندما كان إشرافه على مزاب من مدينة «الأغواط»، وكانوا وسائله إلى تنفيذ مؤامراته المشار إليها بشيء من التفصيل عند الحديث على مزاب في عهد الاحتلال الفرنسي². على أنّ هؤلاء القواد ظلّوا يجمعون بين رئاسة الجماعات باعتبارهم أعضاء منها، وبين التعيين الحكومي الذي كان يتمّ بطريقة إغراء أعضاء الجماعات والضّغط عليهم إلى عهد قريب .. ثم أصبحوا أخيرا موظّفين رسميّن يتقاضون مرتباتهم من الإدارة، على حين بقي لهم حقّ رئاسة مجالس الجماعات حين يحضرونها، وذلك بعد أن أفلحت الحكومة في انتزاع أهمّ اختصاصات هذه الجماعات، وفي إعداد ملفات تستطيع أن تعتمد عليها في اختيار موظّفيها القواد. وكذلك أصبح رئيس الجماعة يلقّب بـ«الخليفة»، أي: الذي يخلف

1. «القائد» وبالتعبير العام في مزاب: «القائد» بالياء، وسيطّ بين الإدارة الفرنسيّة والهيئات العرفيّة بمزاب، على عهد الاستعمار الفرنسي. وغالبا ما يكون ممن يتقن الفرنسيّة. وقد أجبر المزابيّون على تعيين رجل منهم بعدما رفضوه منصبا، إلا أنّ الإدارة الاستعماريّة فرضت عليهم قايّدا من اليهود، فلم يكن من المزابيّين إلا اغتياله. فاضطّروا إلى قبول المنصب لأحد أبنائهم؛ حتى يتمّ التنسيق معه. وقد تحدّث المؤلّف -فيما سلف من صفحات- عن القائد واليهوديّ والبرنوس الأحمر الذي يُعطي للقائد رمز تبعيّة للإدارة الاستعماريّة حتى يُحترم ويصغى إليه. عن قياد مدن وادي مزاب انظر: الحاج سعيد يوسف: تاريخ بني مزاب، 153-157.

2. للمزيد ارجع إلى فصول: مزاب في العهد الفرنسي.

1. يلاحظ بعض الارتباك في معنى هذه الجملة الأخيرة.

2. هكذا في الاصل، كأنّ هناك سقطا.

3. في الاصل: «لجنة». أضفنا لام الجرّ حتى يستقيم المعنى.

القائد عند غيبته أو عجزه مؤقتاً عن القيام بوظيفته، وعند وفاته تعين الإدارة خلفاً له^{1/76}.

سابع عشر: الاقتصاد الاجتماعي بوادي مزاب² تمهيد³

يكون سكان مزاب بطرق حياتهم المتباينة، واستعداداتهم المختلفة، كتلة اقتصادية متكاملة. ويتفرع اقتصاد مزاب إلى اقتصاد محلي، واقتصاد خارج مزاب. أما الاقتصاد المحلي فيسهم في إنعاشه وإنماء سوقه عناصر مختلفة من السكان، فالبدو وأنصاف البدو، وفي طبيعتهم الشعامية⁴ يمّونون المقيمين بالمدن بما يجلبونه

1. هذا آخر الحصة 18 من الحصة الإذاعية التي كان المؤلف يكتبها تباعاً للإذاعة التونسية، وُحُتَمَ كباقي الحصة بـ: «ولنا عودة في دراسة مقبلة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته». ثم هو لم يقل كالسابق إلى اللقاء في الحصة المقبلة، وإنما قال: «ولنا عودة في دراسة مقبلة». وكلها أسماء نكرة: عودة، دراسة، مقبلة. ثم هو لم يعد إلى هذا الموضوع فيما تبقى من صفحات، كما أنّ ما سوف يأتي بعد هذه الحلقة لا يحمل رقم الحصة «19». وكذلك وجدت في فقرة مما سيلي هذه الحلقة قوله: «ويجب علينا أن لا نخفي عن القارئ أنّ طرق...»، فالمؤلف هنا يخاطب القارئ، وليس المستمع. ولقد رأينا في حديثنا عن الحصة الأولى التي وجدت لها النسخة «ذ» والنسخة «ط» رأينا أنّ المؤلف استبدل بكلمة المستمع الكريم في «ذ»، كلمة القارئ الكريم في «ط» أي في النسخة التي أُعدت للطباعة. ويبدو لي أنّ هذه هي آخر حلقة أُذيعت، فهي آخر حلقة مرقونة، وما بعدها كتبه المؤلف بخط يده.

2. هذه بداية الحلقة الجديدة، التي لا تحمل رقماً كسابقاتها، وهي في اثنتي عشرة صفحة مكتوبة بخط يد المؤلف مفدي زكرياء، كتابة مقروءة واضحة جداً، بعكس المرقون.

3. كلمة «تمهيد» من وضعنا؛ لأنّ المؤلف في هذه البداية يتحدّث عن اقتصاد مزاب عموماً، يمهّد به لولوج الأنشطة الاقتصادية كلها، كالزراعة والتجارة والصناعة الحرفية والبناء والتعدين وغيرها.

4. سبق التعريف بهم.

من لحوم وأصواف وحطّاب وحجارة للبناء وجبس. وأمّا العرب المقيمون؛ فهم ينصرفون إلى صناعة الجير، ويقومون بأعمال البناء، ويشتغلون كمعينين في جميع المهن، وفلاحين في الواحات. بينما يشتغل الميزابيون بأنواع التجارة، ويزودون البدو بجميع ما يحتاجونه من سلع بطريق التبادل، ويتفنّون في ترويض المصنوعات المحليّة كالزرايبي والمنسوجات على الإطلاق. وهم إلى جانب ذلك فلاحون مقتدرون، ومقاولون ماهرون في أعمال البناء، ويحذقون جيّداً فنّ التجارة والدهن، والسكافة¹، والحدادة، ومنهم الخبازون والقصابون. وينفرد اليهود² بصناعة الحلّي، من ذهب وفضة، والنقش على الصواني النحاسية، وترويض المشروب المخدرة، وأعمال السحر. أمّا القبائل المجاورة لميزاب، كالأرباع بالأغواط، وأولاد نايل بالجلفة، وأولاد يعقوب بأفلو³، فتساهم في الحركة الاقتصادية المحليّة، وخاصّة أثناء فصل الشتاء، بما تستورده لميزاب من لحوم وأصواف وأوبار، وسمن، وبما تستجلبه من الأوساط الحضريّة، فأنت ترى أنّ مزاب كبقية نقط الجنوب تقريباً يركّز اقتصاده على نظام المبادلة بين البدو والحضر.

1. السكافة: جاء في لسان العرب: «وحرفة الإسكاف السكافة... أسكف الرجل إذا صار إسكافاً. والإسكاف عند العرب؛ كل صانع غير من يعمل الخفاف... والإسكاف الحاذق». والإسكاف كلّ؛ الصانع أيّ كان، وخصّ بعضهم به النجار. انظر ابن منظور: لسان العرب. 2/ 172.

2. يذكر أنّ اليهود جاؤوا لأوّل مرّة إلى مزاب مع الشيخ عتيّ سعيد الجربي (ت: 927هـ/ 1521م). جلبهم إلى مزاب من جزيرة جربة ليملؤوا فراغ بعض المهن. وربما جاؤوا بعد طردهم من مناطق مختلفة، كتوّات وتقرت. وقد عاصر ذلك قدوم عتيّ سعيد. انظر: الحاج سعيد: تاريخ بني مزاب، 73-74.

3. الأرباع وأولاد نايل وأولاد يعقوب؛ من الأعراب الذين استوطنوا المناطق التي ذكرها المؤلف، وهم البدو أو أنصاف البدو الذين يتاجرون مع مزاب من الشمال، كالأغواط والجلفة، ومن الغرب كأفلو. وأفلو مدينة في جنوب غرب الجزائر، تبعد عن الأغواط غرباً بحوالي 09 كلم.

1 الفلاحة بوادي مزاب¹

ما كان للباحث الحريص على استيفاء المعلومات الدقيقة؛ أن يتكلم عن الفلاحة بوادي مزاب، قبل أن يقف وقفة فاحصة عن مركبات الأرض وصحف الجبال وحالة الطقس والأمطار، فالأراضي المخصصة لها أهمية أفقية، بحيث أنها مكثت قارة في أماكنها، بعيدة عن التحولات الجبلية منذ تكوينها، على خط الطول الأوسط الذي يساوي 500 مترا (غرداية 526²). فهي في الجملة أرض منبسطة، إلا أن مفعول مياه الأمطار وتأثيرات الطقس الصحراوي؛ جعل منها جملة من الاصطدامات³ المصطنعة، أصبح سير الموصلات بينها وبين المدن الأخرى عسيرا جدا. ويهيمن على مزاب طقس صحراوي بسبب موقعها، فالسهل ذو صخور قد ترك مفعول المياه عليه نقوشا، وهو خال من الأحواض الطبيعية التي تتجمع فيها المياه، فتتسرب رواسبها نحو الشرق أو الغرب⁴/77، ولا تستطيع أن تقوم بهذه المهمة أوديتها التي هي من النوع الصحراوي المحض، كواادي مزاب ووادي زقير⁵ ووادي متليلي⁶، ووادي سبب⁷، ووادي

لقد كان البدو قبل أن تعود الموصلات تسير في طرق آمنة؛ يفرضون شروطا خاصة في مبادلاتهم على المقيمين. وقد تغير هذا النوع من الاختصاص بصفة محسوسة، بعد أن صار المقيمون بفضل نشاطهم وذكائهم، وبما يتمتعون به من أمن، يتصرفون في قسم عظيم من اقتصاد البدو، ويتسلطون على جل مناطق نشاطهم. وهكذا أصبح المقيمون يزحزون البدو شيئا فشيئا، إلى أن جاءت السيارة، فأتت على آخر طاقة للبدوي الذي عاد يعيش بائسا، ويظهر بمظهر الزبون لا بمظهر المغامر التجاري. وهذه المصارفات التجارية تقع في أسواق بلدان مزاب. وقد كانت تلك المدن تتزاحم وتتخاصم وتحاول كل منها أن تجلب إليها أكبر عدد ممكن من التجار. ولقد تغيرت هذه الحال في الأيام الأخيرة¹. ولئن كانت الأسواق كلها تعقد يوميا؛ فقد عاد البعض منها لا يصلح لغير تموين المدينة بالخطب والقطعان. وانحصرت الحركة الاقتصادية في «غرداية»، وفيها أعظم الأسواق الأسبوعية، إذ يجلب إليها أكبر قسم من المبادلات. واختص سوق «بني يزقن» بترويج الصناعة المحلية ذات الطابع الخاص.

وفي محيط دائرة مزاب؛ توجد بلدة «بريان» وبلدة «القرارة»، وهما تملكان سوقين ثانويين تسيران نحو النمو، وذلك بفضل موقعها² المنزوي/78/3.

1. من المعروف أن المؤلف بدأ حصصه الإذاعية في النصف الثاني من عام 1955م. ولعله يتحدث هنا عن منتصف القرن العشرين 1950-1955م.

2. كذا في الأصل، ولعل الصواب: «موقعها»، أي موقع البلديتين أو السوقين.

3. هذه الورقة /78/ استدرك فيها المؤلف هذه الفقرة الأخيرة التي فاتته في وسط الورقة /77/.

1. هذا العنوان من إضافتنا، وهو مقتبس من السطر الأول لهذه الفقرة.

2. انظر الخريطة في الملحق رقم 7 ص 251.

3. في الأصل: «الاصطدامات» بالتاء بدل الطاء، وهو خطأ.

4. في الأصل: «المشرق أو الغرب».

5. سبق التعريف بوادي زقير بأنه هو الوادي الذي يسقي القرارة ويتخلل غاباتنا.

6. سبق التعريف بمتليلي؛ بأنها في الجنوب الشرقي لمدينة غرداية. انظر عنها: الحاج سعيد: تاريخ بني مزاب، 76 75

7. وادي سبب: مدينة سبب بلدية تابعة لدائرة متليلي، ولاية غرداية. وواديها واد موسمي.

الأدنى ¹ 7. ولا ينزل الجليد إلا نادرا ولا أهميّة له، ولتغيّرات الطقس النهارية أهميّة سواء كانت في الشتاء أو الصيف، نظرا للجفاف التام الذي يعمّ الجو، ولنفس السبب كان بريق الشمس قويا. ومما يزيد الطقس جفافا بصفة دورية؛ ريح السموم الآتية من الجنوب الغربي، وتتكاثر هذه الرياح بصفة خاصّة وتشتدّ في أواخر الشتاء وفواتح الربيع. ولقد عرف مزاب من سنة 1943 إلى سنة 1949 سنوات قاحلة مخيفة، قضت على عشرات الآلاف من النخيل، ووقّفت سير منتوجات الزراعات الأخرى، واجتثت كلّ الزراعات التي تألّف الجذب كذلك، فانحصرت المياه في بعض الآبار القليلة، فوادي مزاب وهو وادي صحراوي؛ كما أسلفنا، من شأنه أن يغذي سطوح السواقي ² التي مكثت بعدما جفّت مياه النهر. ولا يوجد في مقياس العرض بغرداية مقدار معيّن لنزول الأمطار، إنّما هنالك رعود ليس إلا. وأمّا واحات بريّان والقرارة؛ فهي أكثر غزارة من واحات الشبكة ³ عامّة، فهي تقوم على أسس جديدة نصبت ⁴ على الأودية الشماليّة، ولا يوجد أيّ منبع للماء بميزاب، لذلك وجب على السكان أن يردّوا الماء من السطوح الأنفة الذكر، المتراوح عمقها بين 40 و50 مترا

1. لم يتّضح جيّدا هذا الرقم في المخطوط، فكأنّه كتب هكذا بالرقم الهندي: V / : كأنّه 7 بالمائة (7%). وقد ذكر المؤلف في الصفحات الأولى من كتابه أن درجة الحرارة تنخفض في الشتاء إلى أكثر من درجة تحت الصّفر، فانظرها هناك.

2. يقصد بسطوح السواقي؛ المياه الجوفية التي كثيرا ما أغاثت المنطقة بمياهها.

3. الشبكة نسبة إلى بلاد الشبكة، وهي منطقة وادي مزاب ذات الجبال الصخرية التي تخترقها هضاب وواديان وشعاب وسهول ضيقة، مفتوحة من الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي، وتسيطر معظم أوديتها في هذا الاتجاه، مكوّنة شبه شبكة، ومنها جاء هذا الاسم. وهي تشمل المدن الخمس المتجاورة: غرداية، مليكة، بني يزجن، بنورة، العطف. انظر معجم مصطلحات الإباضية 525 / 1، مصطلح: شبكة.

4. هكذا في الأصل المخطوط، ولم أفهم معناها، الذي أربك الجملة والفكرة كلّها.

النساء ¹، ويشدّ عن هذا الوضع وادي زقير الذي ينحدر من نواحي الأغواط، ويشقّ طريقه في فيضانات متكاثرة، ولذلك؛ فهو يجعل واحة القرارة في بحبوحة ونعيم ².

والأمطار تنزل من مراسف جوية علوّها يعادل 67 ملمترا، على شاكلة أمطار مرعدة في فصلي الخريف والربيع. وقد تمرّ على مزاب سنوات جذب بنسبة 39 ملمترا (في سنة 1944م مثلا) وأخرى ممطرة تصل إلى مقياس ³ 109 ملمترا (كسنة 1951م). وبما أنّ العرض الاستوائي ضئيل، وارتفاع مزاب عن مستوى البحر متوسط ⁴، فدرجة الحرارة ترتفع في الصيف أحيانا إلى حدّها الأقصى وهو 50 ⁵ درجة، وتنخفض درجة البرد بنسبة قليلة في الشتاء فتكون حدّها

1. وادي النساء؛ هو الوادي الذي يبعد عن مدينة بريّان في الجنوب الشرقي منها بحوالي 25 كلم، وهو وادّ موسميّ.

2. هذه بعض أسماء وديان المنطقة، فهناك أيضا وادي لعذيرة، ووادي لبيض، يصبّان في وادي مزاب من الشمال عند قرية الضاية، وهي اليوم بلدية الضاية بن ضحوة في الشمال من غرداية، لا تبعد عن واحة غرداية التي تأتي بين مدينة غرداية وبين الضاية؛ إلا بحوالي 06 كلم. وكذلك هناك واد إنتساء الذي تستفيد من مياهه واحات بني يزقن، ويصبّ هو الآخر في وادي مزاب عند مفترق طرق بني يزجن والعطف وبنورة وغرداية. ولذلك إذا اجتمعت مياه هذه الوديان كلّها شكّلت كارثة طبيعية. ومن الوديان كذلك وادي التوزوز ووادي أزويل وغيرها. وكلّها أودية موسميّة.

3. لم يتّضح بالضبط هل يريد المؤلف 109 ملمترا أم 159 ملمترا، فهو في الأرقام السابقة كتبها بالأرقام الهندية، وكتب التواريخ بالأرقام العربية. أمّا هذا الرقم بالذات؛ فكتب الرقم 1 والرقم 9 بالأرقام العربية، أمّا 5 فهي صفر بالرقم الهندي، ولذلك أربكت العدد. ثم إن المؤلف في الصفحات الأولى من كتابه تحدّث عن كمّيّة الأمطار، فقال بأنّها تتراوح ما بين 31 و101 ملم. فانظرها هناك.

4. حوالي 600م عن سطح البحر لغرداية و300م بالنسبة للقرارة.

5. مكان مشطوب، ويبدو أنه 50 بالأرقام الهندية.

أثناء الجفاف . لذلك لا نرى من الغريب أن تأتي فصول من الجفاف لا مثيل لها في وطأتها وطولها، وأن ينجر عنها اضمحلال الغلاف السطحي النباتي للأرض، ذلك الغلاف الذي وفق إلى تكوينه ثم إلى نصبه نشاط وبراعة خارجان عن الطاقة العادية .

ويظهر هذا النظام، وتلك البراعة، من خلال نظام يلفت الأنظار، وهو نظام حصر مياه الواحات بميزاب، فالسطح الذي كان إلى زمن غير بعيد -المورد الوحيد- أصبحت تستغله اليوم الآلاف من الآبار التي تخرب سطح الأراضي القابلة للفلاحة، فليست خاصية البئر في أهميته، إنما في طريقة استعماله . فالمياه لا تُغرف من الآبار بعمل الإنسان مباشرة، بل تُغرف بمساهمة كبيرة بواسطة الحيوانات مثل الأحمر والبغال والجمال التي تنقل حسب حركة آلية معينة، ذهابا وإيابا، عرض مساحة منحدرية تحت قيادة حارس ما . وأما أدوات الغرف؛ فهي تتركب من «دلو» صنع من جلد المعز على شاكلة القمع، وطره الأسفل -أي ذراع- ليست يابسة، وهناك حبل يجري على عجلة «جرارة» معلقة بعمود البئر الذي يعلو الأرض بتمر ونصف تقريبا، وهذا الحبل مشدود إلى الحافة العليا من هذا القمع، ثم هناك حبل آخر مشدود إلى الحافة السفلى من القمع، وهو الذي يحافظ على مسك الذراع أثناء عملية الصعود والنزول .

ولقد صُنع هذا المجموع بصفة هندسية خاصة دقيقة 79/ حتى يسمح للدلو أن يجذب الذراع بفضل الحبل عند ابتعاد الدلو عن البئر، فيقع على الحوض، وهناك يمكن للماء أن ينفلت¹ . ولقد كان هذا الأسلوب مستعملا منذ 1000 سنة² ومازال مستعملا

1 . انظر غلاف الكتاب، ففيه صورة عن زجر الماء من البئر .

2 . لم يتضح إن كان المؤلف يريد منذ 1000 سنة أم منذ سنة 1000م، إذ وضع «م» صغيرة بعد ذكر 1000 .

إلى الآن¹ . فالحركة الأوتوماتيكية الرتيبة تجر اقتصادا في الجهد الآدمي؛ الذي من دونه لما خلقت ولا ازدهرت هذه الواحات، غير أن علم حصر المياه عند الميزابين؛ يمكن إدراكه من خلال الأسلوب المستعمل عندهم لتفريق مياه الفيضانات، ولجبر الوادي على النفوذ إلى الأرض لتموين الطبقة السفلى منها بالماء . وللوصول إلى هذه الغاية هم يسدون ساقية الوادي متى وجب ذلك بحجارة عظيمة، وفي أكثر الأحيان بحجارة مبنية تكون منها سدود . ومن بين هذه السدود ما بُدلت فيها أعمال جارة² . ففي القرارة مثلا؛ نجد وادي «زقير» يتجه نحو الواحة بفضل ارتفاع في الأرض يمتد إلى 2 كلم طولاً، و3 أمتار عرضاً .

2 المجهود الميزابي في إحياء الأرض

في هذه الرقعة القاحلة من الأرض؛ قام الميزابيون بخدمات ذات فن بسيط في ذاته، إلا أنه يدل على عبقرية جارة . . وتسمح هذه الخدمات للمياه إذا ما تراكمت وتحصلت الأرض على كمية منها كافية، بالانفلات نحو واحة «العطف»؛ التي يقوم بها سدّ يحصر المياه، ويجبرها على الدخول في الأرض، طوله 500 متر³، مُحكم

1 . سجل المؤلف في الكتاب عبارة (صورة رقم ...) هكذا بين قوسين، ولكنه لم يعطنا أي صورة . انظر الصورة المرفقة، فهي توضح طبيعة الدلو الذي وصفه المؤلف، وكذلك البئر بساريتيه، والحوض الذي يُفرغ فيه ماء الدلو تباعا بزجره من البئر بواسطة الدواب المذكورة في النص . والصورة من إضافتنا للتوضيح .

2 . وأشهر هذه السدود سدّ «بوشن»، في واحة غرداية، الذي تنطلق منه مجاري أرضية، حفرها الإنسان المزابي منذ قرون؛ لتوصل المياه إلى بساتينه بصفة متناهية في الدقة والذكاء، وهي شبيهة بالفقارات في أدرار، إلا أن الفرق بينها هو أن الفقارات تجري فوق سطح الأرض، أما نظيرتها المسماة «تيسباض» فتسير في بطن الأرض .

3 . في الأصل: «مترا» .

البناء. وفي بني يزقن ذات الأراضي الواسعة القابلة للفلاحة سد¹ يمتد إلى 200 متر طولاً، و8 أمتار ارتفاعاً، بفضل عادت المياه تجري نحو البساتين حتماً، وذلك ابتداءً من الناحية العليا للوحدات بواسطة ميازيب تنقسم فيما بعد إلى تقسيمات ثانوية، فكل بستان يتصل بماء الفيضان وبالرواسب التي تأتي بها المياه، وذلك بفضل ثقب² معينة لا تتجاوز مقياساً معيناً.

وبهذه الصفة تضاعفت مساحة رشح المياه مئات وآلاف، وإن كانت هذه المساحات غير هامة. وذلك ما نصادفه غالباً في ضياع كميات المياه خلال الواحات أو وراء السدود؛ لأن السد الأول الرئيسي متى ضاق عن احتواء كل المياه؛ تسربت إلى الثاني ثم إلى الثالث ثم إلى الرابع، وهذا الأخير هو الذي يوقفها ويحوي ما ترك السابق. وتستلزم هذه السدود وهذه السواقي عناية خاصة وخدمات متواصلة، يشارك في تأديتها سكان قبائل مزاب بأجمعها، فلو انعدمت هذه السدود من مزاب وخاصة في المساحة التي يحتلها سكان القرى الخمس؛ لكان مزاب مرقداً واحداً جافاً³.

وإذا التفتنا الآن إلى الحركة الزراعية؛ لوجدنا فيها رغم صعوبة استهلاك المياه نفس النشاط، فمثلما كان سكان مزاب الأوائل يحبون العيش في الأجنة والحدائق؛ فالميزابيون قد ورثوا هذا الميل واحتفظوا به في قرارة نفوسهم، فالكثير منهم يفضل قضاء فصل

الصيف في الغابة¹ والاعتناء في شغل بالأشجار القليلة التي تركها لهم أجدادهم. وكثيراً أولئك الذين يمضون أيام شيخوختهم بالغابة حتى يتعاطوا أعمالاً خفيفة، وذلك مهما كانت ثروتهم ومهما كان مركزهم الاقتصادي أو الاجتماعي، فالغابة تقوم بقسطها في تغذية سكان المدينة بالخضر والثمار.

ويجب علينا أن لا نخفي عن القارئ² أن طرق استغلال الأرض باهظة جداً، فإن كانت اليد العاملة/80/ موجودة بكثرة؛ فإن الأرض الخصبة نادرة جداً، وأندر منها وجود الماء، وإن مصاريف نقله وجعله في متناول المزروعات لمرتفعة بدرجة فاحشة، سواء كانت طريقة غرف المياه من الآبار على النمط العتيق الذي ذكرناه آنفاً، أو على طريقة محطات «المضخات»، «ترومبات»، وهي لا تفوت المائة محطة، تتحرك بالكهرباء أو³ المازوت، ولا يقدر عليها غير ذوي اليسار من الميزابيين. وعلى هذه الصفة تنمو الآلية في الفلاحة، فضلاً عن الأسعار المرتفعة التي يتطلبها استهلاك الكهرباء، والمحركات اللازمة للمضخات، فضلاً كذلك عن عمق الآبار. ومهما تضافرت⁴ الجهود اليدوية أو الآلية؛ فليست تفيد كثيراً في

1. الغابة في مزاب تعني الأجنة، أي الواحات التي تحوي منازل صيفية يأوي إليها الميزابيون في فصل الصيف. فالقصور تنحدر من قمم الجبال الصخرية التي تصبح في الصيف جرداً حاراً لانعدام أو شبه انعدام الزراعة فيها. أما الأجنة أو الواحات، فتحوي على أشجار النخيل الوارفة وأنواع النباتات الأخرى التي تلطّف الجو الحار.

2. من خلال عبارة «القارئ» يتبين لنا أن المؤلف كتب هذه الفقرة للكتاب الذي عزم على نشره، وليس للمستمع للإذاعة كما فعل مع الحصص السابقة.

3. في الأصل: «المازوت». والحقيقة أن المضخات إما أن تكون كهربائية أو مازوتية. ولذلك فضلنا: «أو» بدل «و».

4. في الأصل: «تضافرت».

1. هو سد «إنتسا» نسبة إلى الوادي الذي يزوده بالمياه.

2. فتحات بواب كل بستان تدخل منها المياه السائلة في الميازيب، وتقاس هذه الفتحات حسب مساحة ذلك البستان ويُعده من السد، وبحسب عدد النخيل فيه. وقيل: كانت وحدة القياس نوى نوع من التمر يسمى «أكزبوش».

3. في آخر هذه الفقرة نجد نجمة هكذا: * على غير عادة المؤلف. لم أفهم المراد منها.

حالة الجفاف التي نشاهد فيها الكثير من الآبار جافة، أو هي تعطي كمّية من الماء لا أهمّية لها، وعند ذلك تقلّ الزراعة، وأحيانا تنعدم وتضمحل ولا تمكث إلا الأشجار التي تذبل أحيانا عندما تكون الحال صعبة ممّضة¹. ولذلك فإنّ مشكلة الماء هي المشكلة العويصة لمزاب²، فإنّ الميزابيين أخذوا في البحث عن الماء منذ أواخر القرن التاسع عشر، علّهم يتصلّون إلى إنقاذ أشجارهم ومحصولاتهم الزراعية في فصل الجفاف، لكنّ البحوث إذك لم تأت بنتيجة، إذ أنّهم لا يملكون الأدوات الحديثة الكافية، ولم يظفر الميزابيون بضالّتهم المنشودة إلا سنة 1938م، عندما حُفر أوّل بئر ارتوازي، فكان عمقه 500 متر، غير أنّ³ هذا لم تتأكّد بعد نتائجه؛ لأنّه باهظ جدّا، رغم ما حُفر للتجربة بمليكة وبني يزقن، والعطف، ومتليلي، والقرارة، وبرّيان، واليوم لا يستعمل الميزابيون ماء هذه الآبار لزراعتهم، إذ يكلفهم مصاريف جدّ باهظة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى؛ فالبئر إنّما يجري مأوها متّبعاً انحدار الأرض، فلا يتدفّق⁴ بارزا من الأرض ذلك تبعاً لشكل الأرض. ولهذا يجب أن يضحّ⁵ الماء على عمق 50م و60م و80م أحيانا، إلا أنّ بلدة «القرارة» هي الوحيدة التي يتفجّر فيها الماء، لذلك نشاهد آفاق النموّ والازدهار تفتح أمام

هذه المدينة، وخاصّة أمام واحتها الشاسعة المترامية الأطراف. وقد تأسّست بميزاب شركة استغلال المياه المختفية تحت الأرض بالجنوب الجزائري (Reesa)، وهي شركة اقتصادية متكوّنة من رؤوس أموال أجنبيّة مختلطة، وهي تقوم بتوطيد ريّ ثلثي واحات مزاب، وترضي على حدّ السواء حاجيات واحة القرارة بأكملها و30% من حاجيات الواحات الأخرى التي لا تبلغها مياه الريّ إلا بواسطة «المضخّات». ومن هذه المساعي الناجحة في أعمال الريّ يتحقّق سكّان مزاب من امتداد إنتاجهم حتى في فصول الجفاف، وبالرغم من¹ كل ما تقدّم؛ فإنّ مناظر الطبيعة بالشبكة محزنة، ونباتاتها وحشيّة، فلا تعترضك المناظر الزاهية، والنباتات المهذّبة إلا على ضفاف الوديان، وأنواع النباتات التي تخضّر عقب كلّ نزول مطر قليلة أحيانا، وبقيّة النباتات الضعيفة لا تصلح إلا لمرعى الأغنام القليلة، وتغزر النباتات خارج الشبكة، وتسمح لأغنام الجهات الواقعة قرب الصحراء أن تقيم فيها لكثرة أعشابها طيلة أيّام فصلي الشتاء والربيع، لكن حتّى في هذه الأماكن القليلة الفساد؛ تحافظ الشجرة على انفرادها الملحوظ، ولا تحمل مجموع النباتات أشجارا أكثر دقّة من شجرة العنّاب، وتعترضك بعض «البتوم»² عند مرقد الوديان الكثيرة الرطوبة، كوادي «النساء» مثلا.

ولا نستطيع³ أن نبدي في فلاحه مزاب حكما متفائلا أو متشائما، فنفسيات⁴ السكان الخاصّة تعاكس تطبيق قوانين

1. في الأصل: «عن».
2. يحيل المؤلف قارئه إلى الهامش لشرح له «البتوم» بقوله: البتوم نوع من الغزدق الوحشي. (المؤلف).
3. في الأصل: «ولا تستطيع».
4. في الأصل: «فنفسيات».

1. مضّ ممّضة، أي مؤلّة وشاقّة.

2. نلاحظ هنا المؤلف يكتب «مزاب» بدون مدّ الميم «مزاب». وهو الصحيح الذي اخترناه في معجم مصطلحات الإيضائية.

3. في الأصل: «غير هذا». وأضافنا «أنّ» ليستقيم المعنى. وربما الأصحّ: «ومع هذا».

4. في الأصل: «يندفق».

5. في الأصل: «يحض»، وهي كلمة لا تؤدّي المعنى في السياق. فاستبدلنا بها كلمة: «يضخّ».

بعد 15 كلم، ولا يرجع منها إلا في المساء؛ حتى يأوي كل عَزْزٍ إلى منزل سيده، فتُقدَّم له وجبة أخرى إذ لا تكفي الحشائش الموجودة بهذه الأرض القاحلة لإطعام القطيع وتغذيته.

وهناك إلى جانب القطيع بعض الأحمر والبغال والجمال، وهي العامل الأول البسيط الوفي المشجع للفلاحة والصالح للحمولات، إذ أن ضيق أنهج المدينة لا يسمح لأي تغيير حديث أن يتم. وتستعمل الحمير والبغال للامتطاء، حيث يركبها السكان ليقصدوا هذه المدينة أو تلك، أو ليذهبوا إلى الحدائق والجَنَات. وتحتوي تربية الحيوانات لميزاب على عدد وافر من الدجاج، ولا تحتوي قط على الأرانب مثلاً، إذ أنها لا تتحمل حرارة الصيف. أما تربية الغنم؛ فلا وجود لها في الاقتصاد الحضري، فالبدو و«الشعامة» و«المذابيح» هم المربون الوحيدون للغنم بميزاب، لكن قطعانهم قليلة جداً ولا تعدّ كثيراً¹. فهذه القطعان القليلة لا تسمح للشعامة أن يعيشوا حياة البدو الحقيقية. ومن حاول أن يعيش منهم هذه؛ أكله الفقر والبؤس. وأما حياة الغابة ذات الصبغة التقليدية؛ فقد أخذت تنعدم شيئاً فشيئاً، فإن التربية المفيدة للحيوانات لا تتأتى إلا بمنظمة عصرية² يتركز نشاطها على نقل السيَّارات، وعلى نقط الماء. وقد أخذ البدو يهجرون بواديهم وينتصبون بواحات متليلى التي يملكونها، أو بواحات القصور الميزابية أو بالمدن، حيث تناديهم اليد العاملة إما في مصالح البناء، وإما في أعمال النقل، وإما في الأشغال العامة.

1. هذا الهامش من وضع المؤلف: 4670 عنزا، 4180 رأس غنم في سنة 1951م. (المؤلف).

2. نشير هنا إلى أن تربية الحيوانات قد تطوّرت كثيراً في ميزاب، خاصة تربية البقر الحلوب التي حققت لمزاب الاكتفاء الذاتي في مادة الحليب ومشتقاتها. وتتركز هذه التربية أساساً في بلديتي القرارة وغرداية وبرّيان.

الاقتصاد السياسي، فالوحدات قليلة حقاً؛ إذا قارناها بعدد سكان مزاب/81، والبساتين مرتفعة الأسعار لمن يريد أن يتخذ منها مستغلات مركزة. ولكن يتغلب الميزابيون على كل هذه المصاعب بالميل الشديد الذي يحتفظون به نحو أرض مزاب، فهو بمثابة عاطفة تدفعهم إلى إنفاق أرباح تجارتهم على الفلاحة بما فيها من يد عاملة، ومصاريف لاستعمال «المضخات الكهربائية» زد على ذلك المصاريف التي تكلفهم استيراد السلع التي لا يملكونها من الخارج¹. فكل ذلك ينتج عنه تعثر الإنتاج المحلي، لذلك؛ فإن الفلاحة التي تحقق للإنسان القسم الأكبر من قوته، وتقدم له حاجياته المختلفة غير قارة بل هي شبه قياس اجتماعي لا سلطان لأحكام الاقتصاد الوضعي عليها².

3 تربية الحيوانات

إن كانت الفلاحة -رغم الصعوبات- منهلاً هاماً للاقتصاد المحلي؛ فتربية الحيوانات لا تأتي إلا في الصف الأخير من أشغال المقيمين في المدن، فإن كل قصر يعطي قطيعاً من المعز إلى عدد من الرعاة، وهذا القطيع يتراوح بين المائة والمائتي رأس؛ لأن سكان المدن لا غنى لهم عن اللبن، يروح القطيع في الصباح إلى الغابات على

1. أي من خارج منطقة وادي مزاب.

2. هذه العبادة الأخيرة شبه غامضة، والمؤلف يتحدث هنا عن النصف الأول من القرن العشرين. والحقيقة أن الميزابيين منذ أن استقرّوا في وادي مزاب قبل الإسلام أو في بداية القرن الثاني من الهجرة (الربع الأول من القرن الثامن للميلاد)؛ انتقلوا من البداوة إلى الاستقرار، ومعه عرفوا الزراعة بمساعدة إخوانهم النفوسيين وغيرهم ممن هاجر إليهم. فأتقنوا الزراعة رغم صعوبة المنطقة، وكافحوا كفاحاً عجبياً، وظلوا يعيشون الزراعة منذئذ. فهم مزارعون من الطراز الأول، أحبو أرضهم. ولذلك نجدهم رغم اغترابهم للتجارة؛ فإن فوائد تلك التجارة إنما هي لاستغلالها في الزراعة. وفي نهاية المطاف؛ ومع نهاية القرن العشرين؛ أبدع الميزابيون في زراعة أنواع عديدة من المزروعات، فضلاً عن النخيل والكروم، واتسعت الأراضي الزراعية، وأصبحت تدرّ خيرات ذات الجودة العالية، خاصة بعد التراجع عن الثورة الزراعية في بداية الثمانينيات من القرن العشرين. والآن وادي مزاب يمدّه السبعة جَنَات وأرفات تسر الناظرين.

وهناك حجارة الجص التي يحرقها البدويون في طاحونات صغيرة مستعملة هي أيضا في البناء المحلي وفي الخدمات التي تصلح لحصر المياه.

- الصناعة وحرفة البناء

تجد الحرف الاستخراجية نشاطها في الاشتغال بالبناء بميزاب، الذي هو مجموع مُدن ذات حضارة عظيمة نسبياً، نستطيع أن نعد ألف شخص على الأقل من بين مجموع السكان يحترفون البناء والأشغال العامة. وقد أصبح في غرداية يُصنع الزليج من الملائم الملوّن، إلى ما ثم من نشاط في الحدادة والمناشير، ودور النجارة والدهن. ولهذه الحركة نشاط باهر، إذ يغذيها المال الآتي من الشمال، ويتعاون سكان مزاب كلهم عرباً وإباضية¹ على هذه الأشغال.

² وقد أنشأ بعض الجريثين في بلدة بني يسقن³ معملاً عصرياً لنسج المناديل الحريرية المطرزة بالأسلاك الفضية، والحياك الحريرية المستعملة للالتحاف، ومعملاً عصرياً للنجارة وصنع «الموبيليا» على النمط الحديث.

وأهم صناعة من بين هذه الصنائع كلها؛ صناعة النسيج من الزرابي وثياب الصوف، وهي الصناعة الوطنية، ويقوم بها النساء أثناء أوقات الراحة. وإنه لمن العسير أن نتعرف إلى عدد المشتغلات، فلا تكاد تخلو بيت من بيوت مزاب من منسج، ولا تكاد توجد أنثى بميزاب لا تحسن النسيج. والمصنوعات تختلف من حيث المستوى تبعاً

ويرجع أصل هذه الحركة الجارفة؛ إلى اضمحلال الأشغال الهامة بالبادية، وإلى انعدام حمولات الجمال من واحة إلى أخرى، وقد غوّسها نقل السيارات. وربما تحققت أهداف البدو الذين يريدون أن يأخذوا قسطهم من الفلاحة بانفجار بئر «زلفانة»¹ الجديد؛ الذي بفضل سيصير من السهل امتداد الزراعة والتشجير على آلاف الهكتارات من الأرض الثرية البكرة؛ إن لم يعتمد الاستعمار لاحتكار استغلالها وجعلها من نصيب المعمرين والمبشرين، وقد ابتدأت محاولات من هذا القبيل /82/.

4 المناجم والحرف

- حرف الاستخراج

لا تعدو هذه الحرف أن تكون مستعملة لاستخراج الحجارة الصالحة للبناء، ولصنع الجص والجبس وأنواع أخرى. وبما أن عموم البلاد أرضها جبسية؛ فلا صعوبة لاستخراج حجارة الجص التي توجد بمحاذاة التجمعات الأدمية.

أما المنبع الجبسي الهام؛ فيوجد بين غرداية ومثلي، يمتد طول الطريق الواصلة بين المدينتين. وهناك أماكن عديدة مستغلة للاستخراج بأساليب خشنة، الشيء الذي لا يمنعنا أن نعد هذه الحرفة من بين الحرف الهامة. فهناك ما يقرب من مائة شخص يشتغلون بها باستمرار. و«التشمشت» هو الاسم الذي يطلقه الميزابي على الجبس الخشن الشديد، وهو مستعمل بكثرة في البناء الميزابي.

1. المفروض أن يقول: «وبربرا». أو إن أراد اختلاف المذهب: «مالكية وإباضية».

2. في الأصل لا وجود للعودة إلى فقرة جديدة.

3. نلاحظ أن المؤلف طيلة كتابه يكتب اسم مدينة مسقط رأسه «بني يزقن». وهنا يكتبه «بني يسقن» بالسين بدل الزاي.

1. زلفانة: بلدية تابعة لدائرة مثلي، ولاية غرداية، وهي على بعد 70 كلم إلى الجنوب الشرقي لغرداية، على الطريق إلى ورقلة، وبها حمام معدني طبي مقصود لفوائده الطبية الجمّة. وزلفانة منطقة زراعية مهمة.

براعة ممتازة في نقش الصواني النحاسية والأباريق المفصصة، وأغلب المقبلين على اقتناء منتوجات النحاس بميزاب؛ السوَّاح الأروبيون.

- صناعة الجلد

يُصنع في مزاب نوع خاص من الجلد، يسمّى «الفيلاي»، ومنه تستخرج البلاغي وأحذية النساء. وهذه الصناعة مزاحمة بمنتوجات جنوب السودان، ومهددة كذلك بما يُستورد من الأحذية الأروبية. وإلى جانب الفيلاي توجد صناعة الدلاء والقرب التي يستعملها الميزابيون للسقاية والغرف¹.

- الفخار

تُصنع منه في مدن مزاب الجرار، والخبابي، التي تُستعمل لأدّخار الماء أو التمر، ومنها ما يُستعمل لأدّخار الشحوم، والزيت، والسمن. وليست لهذه الصناعة أهمية تذكر، وإن كان أسلوبها رائعاً جداً. ولقد اضمحلت أو تكاد، فهناك صانع واحد كاف لأن يجهز المسجد كله²، ويقوم بحاجيات البلاد³.

1. يقصد المؤلف بالغرف؛ زجر الماء من الآبار. وقد تحدّث طويلاً عن المياه بوادي مزاب في الصفحات الماضية.

2. لعل المؤلف يقصد عند حديثه عن المسجد واستعماله لآنية من الفخار؛ تلك الأباريق (إبريق) الفخارية التي لم تكن ميسرة مسجداً تخلو منها قبل أن تعم الأباريق الحديدية، وبعدها حالياً الأباريق البلاستيكية. والملاحظ أن الكثير من تلك الأباريق الفخارية تتخذ شواهد على القبور، ولا تزال هناك ماثلة للعيان إلى اليوم.

3. وتجدر الإشارة إلى رواية متداولة، مفادها؛ أن حرفة صناعة الفخار وردت إلى مزاب على يد الشيخ باي أحمد بن سليمان بن نوح من رجالات نفوسة (ليبيا). انتقل من موطنه نفوسة إلى المغرب الأوسط، فمرّ في طريقه إلى مزاب بمنداس، ثم منطقة المدية ومليانة. وقَرَّر أربعون رجلاً من المنطقة مرافقته، فنشأت بهم عائلة «فخار» التي اتخذت صناعة الخزف والجبس حرفة لها فيما بعد، أسس «أعزّم أنوآدائي» القصر السقلي لبلدة مليكة، وذلك عندما وصل مزاب عام (395هـ/1004م). وآل فخار الآن في غرداية ومليكة والقرارة. كما أن هذه الصناعة ازدهرت خاصة في أسفل مليكة، التي يوجد فيها حيّ يسمّى «مليكة أفران» نسبة إلى الأفران التي كانت تستعمل في تحضير الأواني الفخارية وإنتاج الجير والجبس. نقلاً عن كتاب حصص إذاعية من إنتاج مؤسسة مفدي زكرياء، ص312، هامش رقم 5.

للجودة والإتقان، وهي تشتمل «الجلابيب، والحايك¹، والقشّابية²، والبرنوس من صوف الغنم أو وبر الجمل، والزرايبي نفسها تتفاوت قيمتها تبعاً لدقة صنعها، ولتبعيتها لبلد دون آخر، وفي طليعتها زرايبي بني يزقن المخملة بالزخارف الهندسية التي أخذت تتركز في الأسواق الخارجية بواسطة السوَّاح الأجانب التي خدموا دعايتها.

ويقتني هذه الصناعات؛ البدو الواردون لأسواق مزاب؛ ليجهّزوا أنفسهم بما يحتاجون إليه من ثياب الصوف. ثم التجار الذين يصدّرونها إلى أسواق بلدان التل. ثم السماسرة والسوَّاح الذين يُنعشون بكثرة مدهشة واحات مزاب وأسواقها في الربيع والخريف والشتاء. ويستهلك الميزابي غالب منسوجاته، وخاصة الزرايبي، حيث أن كل بنت يُشترط في تجهيزها زرايبي كثيرة مختلفة الأشكال والمقاييس^{3/83}.

- صناعة النحاس

يظهر أن صناعة النحاس بميزاب حديثة العهد، ففي مدرسة الذكور الحكومية معلّمون لهذه الصناعة، وقد نتج عنها من يحسن صناعة الصحن المزركشة المنمقة، التي تحتل اليوم مركزاً ممتازاً، وإن لم توسم بطابع خاص، ولم يختص اليهود وحدهم بهذه الصناعة كما كانوا بادئ الأمر⁴، بل قد شاركهم فيها الشبان الميزابيون، وأظهروا

1. الحايك، وهو حجاب المرأة المزابية إلى اليوم، يُنسج من الصوف الأبيض، كما يُستورد من تونس كذلك.

2. القشّابية لباس بربري قديم، لا يزال متداولاً إلى اليوم في شمال إفريقيا بلاد البربر، وهو مثل الجلاب؛ بإضافة الذراعين وغطاء الرأس، وكله متصل ببعضه، ويُنسج من الصوف لا غير؛ لأنه لباس شتوي.

3. في الأصل «المقاييس».

4. سبق أن ذكرنا أن اليهود جاؤوا إلى وادي مزاب مع الشيخ عمي سعيد الجربي في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر للميلاد، جلبهم من جزيرة جربة التونسية ملأ هذا الفراغ في صناعة النحاس والحلي. والظاهر أن المزابيين عنهم أخذوا هذه الصناعة وأتقنوها، ولا يزالون يمارسونها إلى اليوم.

- الحلّي

هذه الصناعة كانت ولا تزال من خاصّيات اليهود¹، وإن بدأ الميزابيون يحفلون بها. فصنّاع هذه الحرفة يجهّزون الوسط الإسلامي بما يحتاجه من مصوغ ذهب وفضّة.

5 المواصلات والنقل

لقد تنبّه الميزابيون إلى الوضع الجغرافي لميزاب، الذي يقع في شمالي الصحراء على خطّ الطول المارّ بالجزائر العاصمة، والذي يقسم الصحراء إلى قسمين متعادلين، لكن كانت تدخلات الإنسان هنا أيضا هي المهيمنة، وذلك لجلب القوافل التي كانت مضى تطوف «الشبكة» ولا تستطيع المرور منها، وحذقت ما يحيط بالشبكة من أوعار، وقفزات وأحجار ناثئة. فالنقل كان يُضمن بواسطة الجمال التي تقطع طريقها في معالم خطّتها أرجل الجمال نفسها. أمّا حِداة القوافل؛ فكانوا غالبا من بدو «الشعابمة» الذين يتعاملون مع تجار مزاب. فكانت حين تأتي من تخوم الصحراء؛ تحط بغرداية حمولاتها من الذهب وعبيد السودان، والنمرة²، والحناء، وريش النعام. ثم هي بعد ذلك تنقل من «غرداية» / 84 / حمولات من التمر عرض الشمال³، لتعود من هناك مثقلة بالقموح والسكر والشاي، قافلة إلى الواحات القصيّة في جنوب الصحراء، فكانت

1. سبق الحديث عن اليهود وقدومهم إلى مزاب في القرن التاسع الهجريّ / الخامس عشر للميلاد. أمّا واقع اليوم؛ فكل الصاغة بمزاب تقريبا من المزابيين، باستثناء آحاد من غير المزابيين بدؤوا يظهرون في الآونة الأخيرة. والحلّي لما كان يصنعها اليهود؛ كانوا يصنعون النجمة السداسيّة والخمس (شكل يد مفتوحة بأصابعها الخمس)، يُعتقد أنّها تردّ العين، وظلّت تُستعمل إلى عهد قريب. وقد انتهت اليوم.

2. النمرة؛ شملة فيها خطوط بيض وسود، وهي بردة من صوف يلبسها الأعراب. وقيل: هي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب. انظر لسان العرب 3/721

3. أي لتسافر بها في اتجاه الشمال.

غرداية محور هذه الحركة، ومركزا تجاريّا عظيم الأهميّة في القرن الخامس¹.

ولكن كان هذا النوع من التجارة موجودا إلى الآن؛ فإنّ وسائل النقل قد تغيّرت كثيرا منذ أن عوّضت السيّارة القوافل عام 1930م². وبذلك حلّت بأصحاب الجمال الكارثة العظمى، إذ أصبح النقل من أعمال المقيمين.

فالطريق الرئيسيّة هي التي تصل الشمال بالجنوب، وهي أهمّ طريق، تنتهي إلى «هقار»³، وهي من الجزائر إلى غرداية صالحة لكل أنواع النقل على السيّارة، لكن هذه الطريق تفسد نوعا ما بين غرداية إلى القليعة⁴ فعين صالح فتامراسنت⁵.

وتوجد طريق ثانية على بعد 11 كلم من شمالي غرداية، على طريق الأغواط، وهي طريق ورقلة التي تنقسم على بعد 30 كلم إلى قسمين: قسم يؤدّي إلى ورقلة، والآخر إلى القرارة. ولا زالت طريق «القرارة» إلى «أولاد جلال» إلى «بسكرة» إلى «مسعد» غير صالحة

1. هكذا في الأصل. ولعلّ الصواب: في القرن الخامس عشر الميلاديّ، التاسع للهجرة، وهو فعلا الفترة التي ستنتقل فيها أهميّة التجارة بالنسبة لمزاب عموما، ولغرداية خصوصا.

2. لم يظهر واضحا رقم 3 أو 2 بالأرقام الهندية. ولذلك يمكن قراءة التاريخ: 1920 وكذلك 1930م.

3. هي اليوم الطريق الوطني رقم 1. والجزء الذي يأتي جنوب غرداية إلى الهقار بولاية تمنراست في أقصى جنوب الجزائر؛ أسمته الدولة الجزائرية بطريق الوحدة الإفريقيّة وهو في ألف كلم من غرداية إلى تمنراست.

4. هي مدينة المنيع في الجنوب الغربي لغرداية على بعد 300 كلم. وهي دائرة من دوائر ولاية غرداية حاليّا. كتبها المؤلّف مترجمة حرفيّا من الفرنسيّة (ELGOLEA).

5. هكذا جاءت في الأصل. وهي بلا شكّ المدينة المعروفة في أقصى جنوب الجزائر، مدينة تمنراست. ويُطلق عليها كذلك: تمنغشت. وأمّا مدينة عين صالح؛ فهي محطة ومدينة وسطى في الجنوب الكبير للجزائر، ما بين غرداية وتمنراست.

وغير مستعملة. أما وسائل النقل؛ فهي إما شركات، وإما سيارات مستغلة يملكها سكان البلاد.

6 التجارة

كنّا أسلفنا في فصل سابق؛ أنّ أهمّ عناصر التجارة بوادي مزاب؛ هي المبادلة مع البدويين القاطنين بمحيط مزاب، أو الراحين الغادين إلى أقصى واحات الجنوب. وتأتي في الدرجة الثانية؛ تجارة تموين المقيمين.

فغرداية، وهي بدون منازع؛ الوسط التجاري الأكثر أهميّة من كلّ الأوساط الصحرواية الأخرى؛ إذ هي ملتقى التجار قبل اجتيازهم مفاوز الصحراء الكبرى المخيفة. كما أنّها محلّ سكنى البدو المربّين للحيوانات؛ ولعن كانت «برّيان» و«القرارة» تقاسمها جزءا يسيرا من هذا الحظ. ولقد استغلّ موقع غرداية السكّان الصناعيون الذين يتمتّعون بثقافة اقتصادية عريقة، ورثوها عن أسلافهم. فقد برهن المزابيّ شيئا فشيئا عن استعداداته الفطرية التي تؤهّله لهذه المهمة التجارية. وربّما ورث الميزابيون هذا الاستعداد عن البربر. وقد يكون أيضا عن الفرس؛ الذين كانوا يترّبّعون فترة من الزمن على مملكة (تيارت) الرستميّة¹

إنّ سعة التجارة «بغرداية» لمّا يدعو إلى الاهتمام، حيث أنّها بلدة بدون نتاج؛ نظرا لموقعها، إلّا أنّ التاجر الميزابيّ قد استطاع استجلاب كل شيء من الشمال، ثم هو عدا ذلك ينمي رؤوس أمواله في التجارة المحليّة بميزاب، بالتعاون الدائم بين إباضيّتها ومالكيّتها

1. سبق أن تحدّثنا عن أصل عبد الرحمن، لما تطرّق المؤلّف إلى تاريخ الرستميين. فانظره هناك، أو راجع إبراهيم بخّاز: عبد الرحمن بن رستم مؤسس أوّل دولة إسلاميّة مستقلّة بالجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990م.

تعاوننا متينا متماسكا متلاحما، قاعدته الإخلاص والنزاهة. وإنّ جُلّ رؤوس الأموال التي تُغذي مصارفات سوق غرداية؛ هي مساهمة متوارثة متعاقبة بين الطائفتين/85، يسودها روح الإخاء والطمأنينة والصدق¹. وليست «غرداية» وحدها المختصة بهذا النوع من المضاربات؛ فإنّ «برّيان» و«القرارة» تقاسمانها ذلك الحظّ بقسط وافر.

ثامن عشر: الاقتصاد الميزابيّ خارج مزاب

إنّ المحطات التي نصبها الميزابيون عرض الصحراء؛ قد أخذت في التقلص والانحدار منذ القرن الرابع عشر² إذ اضطرّ الميزابيون إلى توجيه تجارتهم صوب الشمال تحت ضغط الحوادث الكثيرة الناشئة عن اختلافات سياسيّة تسبّبت في التعرّض للقوافل الجائلة عرض الصحراء، فقصّد الميزابيون خطّ العرض، حيث اختاروا مكانا يحقق علاقاتهم مع الأوساط والمدن الواقعة على الطريق المؤدّية للنواحي

1. هكذا فعلا كانت العلاقة بين المزابيين الإباضيّة والعرب المالكيّة قبل الاستقلال، وبعده بفترة زمنيّة معتبرة، كان الاحترام المتبادل، وكان أعيان العرب المالكيّة يحترمون نظراءهم الإباضيّة، وكان أغلب أولئك العرب في ذلك الوقت أعرابا يسكنون الخيام والأكواخ في محيط المدن المزابيّة؛ التي تشغلهم في الزراعة والرعي والبناء والحراسة. ولما كان الاستقلال وعمّ الرخاء، وأتبع الجزائر نظام الحزب الواحد الاشتراكي، ضيّق على التجار في تجارتهم، وتعسف القائمون على تطبيق الثورة الزراعيّة بمزاب كما في غيرها، فاغتصبت الأراضي، وشيئا فشيئا بدأ الحزب أو بالأحرى؛ القائمون عليه بغرداية بتغذية روح العداء بين المتساكنين، بالنظر إلى فروق التحضر والبداءة، والفقر والغنى، والعروبة والبربريّة، وكذلك المذهبيّة. فليت المتساكنين من العنصرين ينتهبون إلى ما يُحاك ضدّهم، وأنّه لا يخدم مصالحهم بناتا، وعليهم بالاعتصام بحيل الله المتين: الإسلام المتمثّل في الجزائر في المذهبين الإباضي والمالكي، وهما قريبان جدّا من بعضهما، يتطابقان ولا يتنافران، إلا عند أصحاب الهوى والبغي والطمغيان.

2. يقصد القرن 14 للميلاد، الثامن للهجرة.

الغنيّة، وإلى سواحل البحر، مثل الأغواط والجللفة¹، والمدية، والبليدة²، والجزائر، ولقد كان حظهم من الجزائر وافرا، إذ هو الوسط الاقتصاديّ الأعظم، والعاصمة السياسيّة، فأقاموا بها وفتحوا بها محلات تجارية منذ القرن الرابع عشر المسيحيّ، ثم أخذوا يتسرّبون منها شيئا فشيئا إلى بقيّة مدن العمالتين وهران وقسنطينة. وقد مارس الميزابيون عدّة فروع تجاريّة، إلا أنّهم تخصّصوا في تجارة الأقمشة³، والمواد الغذائيّة. وكان الميزابيون في ذلك العهد يتعاضدون كتلا في شبه شركات، يسمونها «الرّمادة». ثم غدت هذه «الرمادات» تتفرّع إلى مشاريع مستقلة، تقوم على رأس مال لفرد أو فردين، وعلى أكتاف أجراء عديدين، يتخرجون⁴ بعد ذلك إذا ما حذقوا فنّ التجارة، ويؤسسون دكاكين مستقلة، وهكذا دواليك⁵. ولما تقدّمت أساليب التجارة بعد الحربين العالميتين تبعا للتطوّر والانقلاب الذين شملا العالم، وأصبحت مجهودات الفرد

لا تكفل النجاح في أيّ عمل، وخصوصا في الميادين الاقتصاديّة؛ كان لزاما على الميزابيين أن يطوّروا في أساليب تجارتهم، وأن يتناسقوا مع الأوضاع الجديدة، سيما وقد صهرتهم النكبات والحن من جرّاء المضايقات والاضطهادات التي كانت سياسة «الميز العنصريّ» تحارب بها الاقتصاد الإسلاميّ الجزائريّ خلال الحرب العالميّة الأخيرة. فقد تواطأ¹ الاستعمار بالجزائر مع صنائعه من غلاة الصهيونيّة على سدّ جميع طرق الاستيراد أمام التجار المسلمين، واحتكار «رخص الشراء» لإنعاش التجارة الأوروبيّة على العموم، والتجارة الإسرائيليّة على الخصوص، حيث كان أرباب هذه التجارة -في جميع الميادين- هم المسيطرين على مصالحها وإدارتها من رؤساء إلى أبسط كاتب². فأنحصرت التجارة الإسلاميّة في مضيق لا تكاد تتنفّس منه إلا بمقدار. وإذا ما قُدّر لبعض التجار المسلمين أن يبرزوا؛ فعلى حساب «البقشيش»³ المحترم، الذي كان الشفيق الوحيد المسموع الكلمة، النافذ الإرادة، أو على حساب/86/ بعض الضمائر التي كانت سهامها مرتفعة في بعض الأسواق.

ولم يكن هذا النوع في «الحيف والميز» بالنسبة للمسلمين خاصّا بالتجارة فقط، بل كان يطبّق في أقسى صوره وأفظع معانيه على جميع المستهلكين منهم. فإنّ «رقاع التوزيع» التي كانت تُغدّق بدون حساب على السكان الأوروبيّين، فتتسرّب لسراييب السوق

1. في الأصل: «تواضع». ورأينا الأصوب أن يقال: «تواطأ».

2. في الأصل: «كتاب».

3. كلمة «البقشيش» كلمة عاميّة مشرقية، تعني الرشوة لقضاء الحاجة الملحة. وقد لا تكون رشوة إذا لم تكن على حساب الآخرين، وإنما فساد الإدارة يقتضيها لقضاء المصالح.

1. في الأصل كُتبت: «الجلفا». وقد كتبها سابقا عدّة مرّات: «الجلفة».

2. مدينتا المدية والبليدة جنوب الجزائر العاصمة. تبعد ثانيتهما عن الجزائر بحوالي 50 كلم، والأولى؛ أي المدية، إلى الجنوب من البليدة بحوالي 80 كلم أيضا.

3. احترف مفدي زكرياء تجارة الأقمشة، وكان له مخزن بعنوان «دار السلام»، يبيع القماش بالجملة ونصف الجملة في الجزائر العاصمة، شارع أحمد بوزرينة، المعروف سابقا بنهج لالير، المفضي إلى ساحة الشهداء. وسيدلي المؤلف بمعلومات دقيقة عن التجارة في تلك الأثناء بحكم ممارسته لها، ومعاناة التجار المزابيين بخاصة، والتجارة المسلمين الجزائريّين بعامة، وهي معاناة يعرفها المؤلف تمام المعرفة. وقد خبر مراوغات الإدارة الفرنسيّة واستغلال العنصر اليهودي للظروف الاستعماريّة.

4. تبدو في الأصل «يستخرجون». ويبدو أن الأصح ما أثبتناه.

5. انظر عن حظوظ الاجير في التجارة، ومعاملته وتخرّجه، التعليق الذي جاء في كتاب حصص إذاعيّة، ص 315، هامش 1 و 2.

السوداء، كانت تُقتر على المسلمين تقتيرا فاحشا، بعدما يختلس الكتاب والمحتسبون منها نصيبهم الموفور.

ولم يقتصر هذا الظلم السافر على الذين يمشون على الأرض من المسلمين، بل سبقهم إلى الأجنة في بطون أمهاتها، إذ يكفي أن تدلي الحامل غير¹ المسلمة بشهادة الحمل لتأخذ قسطها وقسط مولودها المنتظر من اللباس والغذاء، بينما لا يُسمح للحامل المسلمة بأخذ شيء من ذلك؛ حتى تضع حملها، وما يدريك لعل المولود لا يكون بشرا!!!²

وإذا كتب الله السلامة والعافية بعد كل هذه الإجراءات للتاجر أو المستهلك المسلم؛ فما كان له أن ينجو من يد «شرطة المراقبة»؛ التي كانت جد حريصة على تطبيق سياسة الامتصاص والاستنزاف والتفقير، حرصا تركها تطارد المسلم في دكانه وفي قعر³ بيته آتاء الليل وأطراف النهار، وتلاحقه بأساليب وحشية من ضرب وتعذيب وترويع، وسواء كان آثما أو بريئا؛ فهو «المذنب رغم أنفه»، ولا مناص له من إحدى ثلاث: البقشيش الباهظ مالا، أو الغرامة الفادحة ارتجالا، أو السجن حالا.

ومن البديهي -وقد أصبح التاجر المسلم بعد الحرب؛ يتطلع إلى الشراء من المصانع الأوروبية مباشرة، ويهتم بتجارة الجملة والتكثّل

1. في الأصل: «الغير المسلمة». وهو خطأ لغوي عام. والأصح أن يقال: غير المسلمة. فالألف واللام لا تدخلان على كلمة «غير».

2. المؤلف هنا يتهم من الإجراءات التعسفية للإدارة الاستعمارية، وميزها العنصري، وهو الذي خير كل ذلك وعائشه، عايش ويلات الاستعمار الفرنسي الذي لا يضاهيه إلا الاستيطان الصهيوني المجرم الجاثم على أرض فلسطين منذ أكثر من 60 عاما، وقد بدا تلميذا ناجحا في تقليد جرائم فرنسا في الجزائر.

3. يبدو أن المقصود هو: «عقر بيته».

في نطاق شركات - أن يكون التجار الإسرائيليون إلبا عليه مع الاستعمار، دفاعا عن غريزة الاستغلال الموروثة فيهم، إذ يشعرون أن البقرة الحلوب الضاحكة؛ قد انقلبت عابسة ثائرة تتأهب للانفلات والانعقاد، وأن التاجر الجزائري المسلم تعلم أن يقطع البحر إلى أوروبا، وأن يتحرر من الحجر والوصاية الإسرائيلية التي كانت تفرضها عليه عزلته وانحلاله ومركبات النقص التي ركزها فيه الاستعمار الغاشم.

فتأسست شركات جزائرية ضخمة؛ كان الميزابيون من طلائعها في سائر أنواع التجارة؛ من أقمشة ومواد غذائية وماعون¹، وحمّات عصرية، وشركات سينمائية، ومصالح النقل، وتقدم شبّانهم إلى ميدان النياحة التجارية التي كانت من اختصاصات اليهود وبعض الفرنسيين، فنظموا مكاتب على الأساليب الحديثة، وربطوا أوثق الصلات بمعامل ومصانع أوروبا وأميركا/87.

وتفرّع نشاطهم إلى ميدان الحرف والصناعة، فأسسوا مشاريع ضخمة للبناء والزراعة² والتجارة، ومصانع محترمة للعطر، والصابون، والحناء، والغسل المائي، والخل وصناعة النحاس.

وهذه النهضة الاقتصادية التي قام بها الجزائريون عموما، والميزابيون منهم خصوصا، وساروا فيها بأقدام ثابتة وخطوات موفقة؛ أثارت عليهم حفاظ مستغليهم بالأمس من الإسرائيليين، فأعلنوها عليهم حربا عوانا بشتى الوسائل، فمن حملات الأراجيف، وإدخال

1. تجارة الماعون: لعلها ما يعرف اليوم بتجارة الاواني المنزلية.

2. الورقة مبتورة قليلا من اليسار في الأسطر الخمسة الأولى، فاجتهدت في وضع الكلمات المناسبة، وهي كلمة في كل سطر، يظهر حرفها الأول في بعض الأسطر. والكلمات هي: والزراعة، المائي، منهم، عليهم، حربا. وهي الكلمات ذات الخط المائل في المتن.

الريب والشكوك لدى المصانع، إلى دسائس ومكائد في البنوك - ويبدّهم مقاليد إداراتها-، إلى وشايات لمصلحة الغرائم، وبوليس الرقابة المزدوجة. وما كانت كل هذه المؤامرات المنظّمة لتَنال من عزائم التجّار الذين لا يعتبرون الثبات في مراكزهم مصلحة تجارية فقط، وإنّما يرونه واجبا تدفعهم للقيام به إرادتهم الصادقة في التحرّر والانطلاق من أغلال العبوديّة الاقتصاديّة، وبرائث التسخير والاستغلال، تُنشطهم على هذه المصابرة عقيدة الشعب الجزائريّ الواعي في وجوب التكافل والتضامن، والتفضيل.

وكان الاستعمار يستغل هذا الحقد الدفين؛ ليجعل من بني إسرائيل الشرارة الأولى لإضرار لهيب الفتنة العنصريّة، والمذهبيّة بين طبقات الشعب الجزائريّ العربيّ المسلم، وإشاعة القطيعة والجفاء بين أبنائه؛ حتى يتلهّى الشعب المجاهد عن كفاحه بفتنة داخلية، قد تجرّه للهزيمة لو لم يتفطن لعواقبها، فيقضي عليها في مهدها^{1/88}.

1. في آخر الكتاب يعود المؤلّف مفدي زكريّاء لمرّكز مرة أخرى على الحديث عن الاستعمار ومؤامرة الفتنة التي يريدها بين المزابيين والعرب، بين المالكيّة والإباضيّة في عموم وطن الجزائر، لما استطاع أن يثير فتنة مقاطعة التجّار المزابيين في صائفة 1955م. تلك الفتنة التي بسببها حرّز حلقات هذا الكتاب، قصد بثّها من إذاعة تونس الملتقطة بالجزائر؛ أوّلا. ثم كانت عزيمته أن يخرج كتابا مقروء، وحالت دون ذلك ظروف في حينها. وها هي مؤسسة مفدي زكريّاء تعقد العزم على تحقيقه ونشره كتابا قيّما في موضوعه وعرضه وأسلوبه. نرجو أن ينتفع به الجزائريّون خصوصا، والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها عموما.

الملاحق